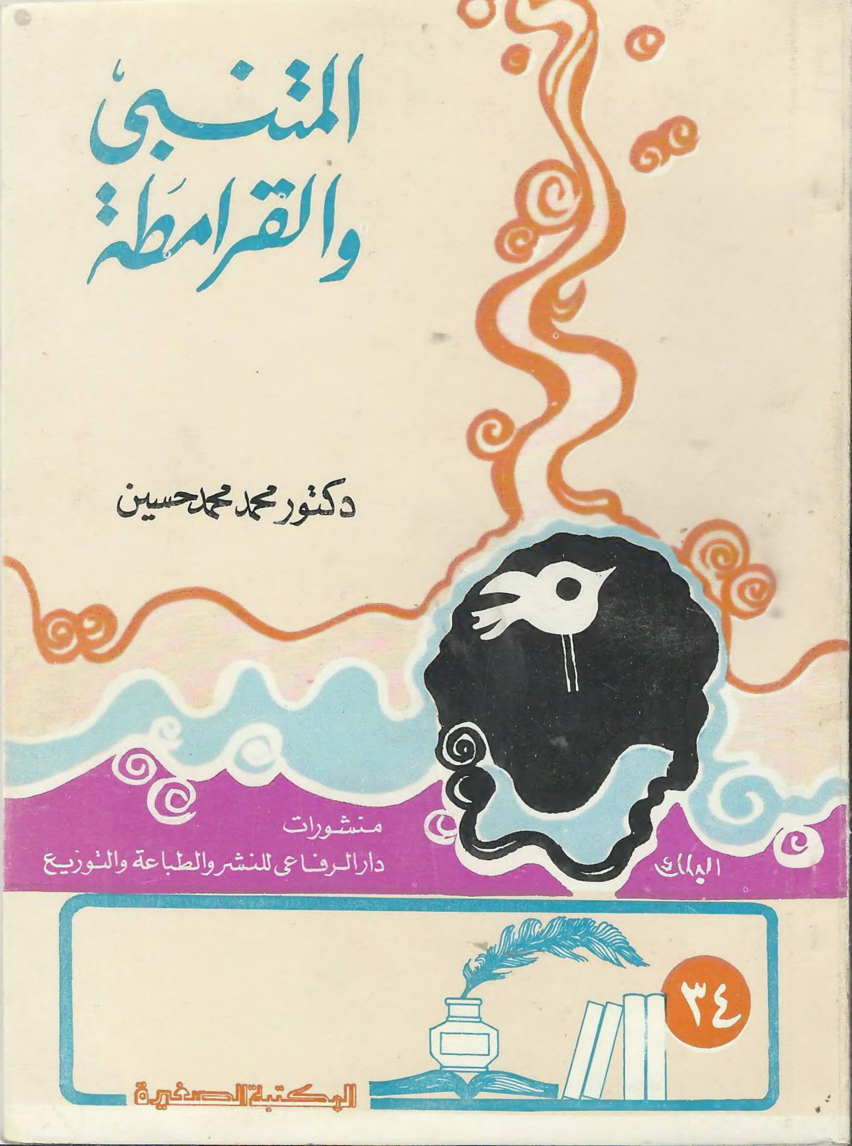

المتنبي والقرامطة
دكتور محمد محمد حسين
منشورات
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع
٣٤
المكتبة الصغيرة

المكتبة الصّغيرة

٣٤

المتنبّي والقرامطة

الدّكتور محمّد محمّد حسين

أستاذ الأدب العربي

الطبعة الأولى

شعبان ١٤٠١ هـ

يونيه ١٩٨١ م

منشورات

دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله . وبعد :

هذه محاضرة عن « المتنبى والقرامطة » . ألقيتها فى كلية الآداب بالجامعة الليبية ببنغازى فى مساء يوم السبت ٢١ من رجب سنة ١٣٨٣ لهجرة نبينا عليه الصلاة والسلام ، الموافق ٧ من ديسمبر سنة ١٩٦٣ لميلاد المسيح عليه السلام . ثم نُشرت فى المجلد الثامن عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٤م . ألحقتُ بها زيادة فى اجمال ما ذهب اليه الباحثون المعاصرون بشأن القصة الشائعة التى تزعم أن أبا الطيب ادّعى النبوة فى صدر شبابه . وكانت هذه الزيادة استجابة لطلب الأخ الصديق الأستاذ عبد العزيز الرفاعى .

والدراسة الأدبية لا تعرف الكلمة الأخيرة ، لأنها ـ مع كل المحاولات التى تريد أن تخضعها لمناهج علمية ثابتة ـ يظل شطر كبير منها معتمداً على الخيال وعلى الذوق الشخصى وعلى قياس الأحداث وتعليلها بمقاييس الباحث نفسه فى السلوك وفى ردود الأفعال . وتظل بصمات الباحث الشخصية ظاهرة فى البحث ،

مهما يبذل من جهد فى التجرد منها . وتظل الدراسة الأدبية أولا وآخراً مزيجاً من الرياضة العقلية والفنيـــة ، ومحاولة لـكتابة قصة غاب كثير من عناصرها وأحداثها ، فملأنا فجواتها بالمنطق الذى يقوده الخيال ، ويظل ممتزجاً به ، يصعب تخليصه منه ؟

محمد محمد حسين

الرياض فى ١٥ من ذى الحجة سنة ١٤٠٠ هـ

المتنبي والقرامطة

شغل المتنبى الناس فى حياته وشغل النقاد بعد موته . وبالرغم من مرور ألف عام على اشتغالهم بحياته وبشعره ، لا يزال فيهما بعض الظواهر الغامضة التى تحتاج الى تفسير ، أو التى لا يزال مجال الدراسة مفتوحاً لمزيد من الفروض التى تفسرها . ومن أبرز تلك الظواهر ظاهرة تأخذ نظر المتصفح لشعر المتنبى منذ النظرة الأولى ، وهى الثورة العارمة التى تُغَشِّى شعره كله ، لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات ديوانه . وقد كان الناس يطمئنون الى أن هذه الثورة مظهر لعُجب وزَهو يشبه الجنون ، جعل المتنبى فى نقمة دائمة على الناس ، ملوكهم وعامتهم . وهى نقمة لا يبررها عندهم الا هذا الجنون . حتى صدرت عدة بحوث فى سنة ١٩٣٦م بمناسبة مرور ألف عام على وفاة المتنبى ، كان أبرزها وأسبقها الى الظهور كتاب محمود شاكر الذى أصدرته مجلة المقتطف فى عدد خاص فى أول ذلك العام ، ثم كتاب عبد الوهاب

عزام وكتاب طه حسين اللذان صدرا بعده ببضعة أشهر . وقد علل محمود شاكر ثورة المتنبى بأنه علوى النسب وأن العلويين أكرهوا جدّته التى نشأ فى حجرها ـ لسبب لا نعرفه ـ على اخفاء هذا النسب ، كما علله بكراهيته للعناصر الدخيلة التى تسلطت على الدولة وأفسدتها . وعلل طه حسين هذه الثورة بأنه كان داعية قرمطياً . ونفى عبد الوهاب عزام قرمطيته بأدلة ونصوص من شعره . أما نحن فنريد أن نضيف الى نفى قرمطيته أنه كان عدواً للقرامطة يسعى الى جمع الناس على حربهم وتنبيههم الى خطرهم . وقبل أن أبدأ كلامى فى الموضوع لا أرى بدّاً من التعريف بالقرامطة . فمن هم القرامطة ؟

القرامطة شعبة من شعب الباطنية أو الشيعة الاسماعيلية ، الذين برزوا على مسرح التاريخ الاسلامى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ،والذين كانوا يتظاهرون بالدعوة لآل البيت وانصاف المظلومين من الظالمين والمحرومين من المترَفين ،

ويبطنون الالحــاد وهدم الاسلام ، بل هدم العقائد الدينية كلها ، باستدراج الداخلين فى دعوتهم فى مراتب ودرجات سرية يسلخونهم فيها من عقائدهم، حسب ما يرونه من استعداد التابع لهم ، حتى ينتهوا به الى الكفر بكل الأديان والتحرر من كل التكاليف واباحة كل المحرمات .

وكتب التاريخ على اختلافهــا مملوءة بأخبــار القرامطة ومحاربتهم للخلافة العباســية وغاراتهم المخــرّبة على الأمصــار والمدن ، وفظــائعهم التى ارتكبوها مع قوافل الحجاج وفى الــكعبة نفسها . ولكن نشأتهم وعقائدهم وحقيقة أهدافهم يحيطهــا كثير من الغموض ـ شــأن كل الدعوات السرية ـ وأكثر ما نعرفه عنهم فى هذه الناحية مستمد مما كتب عن الشــيعة الاسماعيليــة الذين يطلق عليهم اسم الباطنية ـ والقرامطة كما قلنا شعبة منهم ـ نجد ذلك فى كتب الفرق ، مثل (الفرق بين الفرق) للبغدادى (المتوفى سنة ٤٢٩) و (التبصير فى الدين) لتلميذه وختنه عماد الدين الاسفراييني (المتوفي

سنة ٤٧١) و (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) لابن حزم الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٦) و (الملل والنحل) للشهرستانى (المتوفي سنة ٥٤٨) . وقد ازدادت معرفتنا بعقائد الباطنية فى السنوات العشرين الأخيرة ، بعد ظهور عدد من الكتب التى ألفها علماء هذه الطائفة ودعاتها . وان كان من الواضح أن هذه الكتب لا تمثل الجانب السري الهدام من المذهب . فهى مكتوبة للعامة ممن يراد استدراجهم وادخالهم فى المذهب . ولا تزال أكثر كتب الدعاة مجهولة أو مستورة فى خزائن الشُعَب المتخلفة الباقية من هذه الطائفة فى الشام واليمن وشرق افريقية وفى باكستان والهند ، ولا سيما طائفة البُهرة(١) .

وأقدم ما وصلنا فى الكلام عن مذاهبهم هو ما كتبه الحسن بن موسى النوبختي (من علماء الشيعة الامامية فى القرن الثالث الهجري) فى كتابه « فرق الشيعة » . ومن أقدم ما وصلنا عن أخبار القرامطة (كشف أسرار الباطنية وأخبار

القرامطة) لمحمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادي اليماني . ويعد هذا الكتاب أخطر ما كتب عن القرامطة والباطنية عامة ، لأنه ينفرد بين سائر ما كتب عنهم بأن مؤلفه قد دخل فى مذهبهم واندمج فى صفوفهم ، ثم انسلخ منهم حين عاين كفرهم وضلالهم ، وكتب كتابه تنبيهاً للمسلمين الى خطرهم(٢) .

ودعاوى الشيعة عموماً ـ ومنهم الاسماعيلية والقرامطة ـ تبدأ من يوم الغدير ـ غدير خُم ـ الذى يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم عهد فيه الى علي عند عودته من حجة الوداع سنة ١٠هـ. وذهب غلاتهم الى أن النبوة قد سلبت من النبي منذ ذلك الوقت وأصبحت لعلي رضى الله عنه(٣) .

والشيعة كلهم ـ على اختلاف فرقهم ـ يقولون ان الامامة تورث ولا تكتسب ، وانها قد تسلسلت فى عقب علي ، كلما مات امام نص على من يخلفه بوحي من عند الله لا محل فيه لاجتهاد البشر .

وفساد دعاواهم يبدأ من ابن سبأ اليهودي الأصل، الذى يعتبر اليد المحركة من وراء الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان رضى الله عنه ، والذى يعتبر كذلك اليد المحركة لفتنة علي ومعاوية حين اندس هو وصحبه فى صفوف جيش علي . فقد زعم أن روح الله حلت فى علي ، وأقحم على التشيع عناصر غريبة عن الاسلام حين زعم أنه حي لم يمت ، وأنه يعود فى آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً(٤) . ثم كان ظهور الاسماعيلية الباطنية على يد يهودي آخر ، هو عبد الله بن ميمون القداح أخطر تطور خرج بالدعوة من النور الى الظلام ، ودخل بها فى سراديب الخفاء(٥) .

وتبدأ دعوى الاسماعيلية استحقاق الامامة بوفاة الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبى طالب سنة ١٤٧ . فقد انقسم الشيعة من بعده الى فريقين :

(أ) الامامية : الذين سلسلوا الامامة من بعده

فى ابنه موسى الكاظم ، وفى أبنائه من بعده ، الى الامام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى ، الذى دخل السرداب بزعمهم فى مدينة سامرا (شمال بغداد) سنة ٢٦٠ . ويظل فيه الى أن يعود فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً .

(ب) والاسماعيلية : الذين قالوا بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق وامامة أبنائه من بعده. وهم يزعمون أن جعفراً عهد بالامامة الى ابنه اسماعيل الذى توفي في حياة أبيه . وفى زعمهم أن الامامة تنتقل الى ابنه محمد بن اسماعيل لا الى أخيه موسى . وفيهم من يزعم أن اسماعيل لم يمت فى حياة أبيه ، ولكن أباه أذاع هذا الخبر تمويهاً على الخليفة العباسى . ومن الثابت تاريخاً أن محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق ترك المدينة الى بلاد الديلم (جنوب بحر قزوين) . ولم يسمع عنه شيء بعد ذلك(٦) .

والواقع أن التاريخ لم يعرف شيئاً اسمه (فرقة

الاسماعيلية) حتى أواخر القرن الثالث، عندما ظهرت حركة القرامطة فى البحرين والشام . وذلك بعد دخول الامام الثانى عشر، محمد بن الحسن العسكرى السرداب ـ بزعم الامامية ـ سنة ٢٧٠ (٧) .
وكان ظهور القرامطة ايذاناً بظهور الاسماعيلية على مسرح السياسة، بعد انقطاع أخبار ولد اسماعيل بن جعفر أكثر من قرن، يزعم الاسماعيلية أن أئمتهم كانوا فيه مستترين خوفاً من بطش العباسيين . وهذه الفترة هى المعروفة عند مؤرخيهم بدور الستر (وهو يبدأ بوفاة جعفر الصادق سنة ١٤٧ وينتهى بظهور عبيد الله المهدى بالمغرب سنة ٢٩٦) ولم يستطع الاسماعيلية أن يقدموا لنا صورة صحيحة متفقاً عليها بينهم عن أئمتهم فى هذه الفترة . فالخلاف بينهم كثير حول عددهم وأسمائهم (٨) .

ونشأة فرقة الاسماعيلية (التى تنتمى اليها الدولة الفاطمية) موضع خلاف بين مؤرخى السنّة والشيعة على السواء . والخلاف حول نشأة هذه

الفرقة يتصل اتصالا وثيقاً بالخلاف حول نسب الفاطميين ، الذى ظل موضع جدل بين الباحثين القدماء والمحدثين منذ ظهروا حتى الآن . ففريق من العلماء والمؤرخين يؤيد نسبهم الى الحسين رضى الله عنه ـ وهم قليل(٩) . وفريق آخر ينكر عليهم دعواهم ـ وهم الكثرة ـ ويرجعون نسبهم الى داعية خطير اسمه عبد الله بن ميمون القداح ، كان يتستر بالتشيع والدعوة لامام من آل البيت هو محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، ويدعو سراً الى مذهب فلسفي الحادي لانكار الأديان والنبوة ، صاغه فى تسع مراتب سرية يتدرج بالداخل فيها الى أن ينتهى به الى انكار جميع العقائد والشرائع(١٠) . وجمهور المؤرخين ومؤلفو كتب الفرق ، وفيهم مؤرخون من الشيعة ومن الاسماعيلية على الخصوص ، متفقون على أن القرامطة شعبة من الاسماعيلية الباطنية (١١) . فيذكرون أن حماد قرمط الذى تنسب اليه فرقة القرامطة قد دخل فى دعوة الباطنية على يد عبد الله بن ميمون القداح أو على يد ابنه . وأن حماد قرمط هذا قد قام بأمر

الدعوة فى سواد العراق فنجحت دعوته وكثر أتباعه ، حتى اتخذ فى سواد الكوفة قرية بنى حولها سوراً منيعاً ، وجعلها دار هجرة نقل اليها أتباعه سنة ٢٧٧ فتحصنوا بها(١٢) . وعن حماد قرمط أخذ الدعوة أبو سعيد الجنابى مؤسس دعوة القرامطة فى البحرين ، وذكرويه بن مهروية زعيم القرامطة فى الشمال (شمال غرب العراق وبادية السماوة فى الشام) .

ثم ان القرامطة خرجوا على الفاطميين وحاربوهم . واختلف المؤرخون فى أسباب هذا الانشقاق فى صفوف الباطنية . فمنهم من يقول ان حمدان قرمط نفسه خرج على أبناء القداح سنة ٢٨٠ (١٣) . ومنهم من يجعل خروج القرامطة على الفاطميين تالياً لظهور الفاطميين فى المغرب . ويقولون ان ذلك كان بسبب شكهم فى صحة نسبهم وفى صحة دعوتهم(١٤) . أما مؤرخو الاسماعيلية فيقولون ان رحلة عبيد الله المهدى أول ملوك

الفـــاطميين في المغـــرب من سَلَمِيَّة كانت بسبب انتقاض القرامطة عليه(١٥) .

وأية ما كان الأمر فقد ظل النـــاس الى عصـــور متأخرة لا يفرقون بين القرامطة والفاطميين . فقد روى أبو المحاسن بن تغرى بردى فى كتابه «النجوم الزاهرة» أن القرامطة بعد اختلافهم مع الفاطميين أرادوا أن يستعينوا عليهم بالخليفة العباسى (المطيع بالله) فـــرفض طلبهم وقال : « كلهم قرامطة وعلى دين واحد »(١٦) .

كانت الدعوة الباطنية بشعبتيها ـ القرمطيـــة والفاطمية ـ دعوة هدامة ترمى الى افساد الاسلام ، بل الى هدم الدين جمـــلة . وكانت تعتمد فى ذلك على خطة محكمة وعلى جهـــاز سري دقيق التنظيم . وكانت « سَلَمِيَّة » ـ بالقرب من حمص فى سورية ـ هى المركز الأول لقيـــادة هذه الحـــركة . وقد ظلت كذلك الى أن انتقلت منها القيادة الى شمال افريقية ثم الى مصر . وكانت أسرة ميمون القـــداح رأس

هذه الحركة تعيش فى « سلمية » فى هيئة تجار ، ويخفون حقيقتهم على غير المقربين من أتبـاعهم ، ويرسلون دعاتهم الى جميع البلاد الاسلامية للتبشير بقرب ظهور المهدى المنتظر(١٧) . أما جهاز الدعوة فقد كان يقوم علىتقسيم العالم الاسلامي الى مناطق تسمى كل واحـدة منهـا (جزيرة) ، مثل جـزيرة مصر ، وجزيرة العراق ، وجزيرة فارس ، وهكذا . وعدد الجزر اثنتنا عشرة جزيرة ، يقوم على كل منها رئيس للدعاة يسمى (حُجَّة) . وكان يساعد الحجة ثلاثون (نقيباً) . وكل نقيب منهم يتصل بأربعـة وعشرين (داعياً) ، منهم اثنـا عشر داعيـاً ظاهراً واثنا عشر داعياً محجوباً مستتراً . وبذلك نرى أن عدد أفراد هذا الجهاز يقرب من (٨٧٠٠) . وذلك باستثناء عـدد آخـر من الدعاة يعملون مع الامام في مقره ، وتتكون منهم هيئة القيادة العليا . وقد قدر النوبختي عدد أتباعهم فى القرن الثـالث فى الكوفة واليمن بنحو من مائة ألف(١٨) .

وكان لـكل طبقة من طبقات هذا الجهـاز عمل

خاص لا تتعداده . فداعى النهار ــ أو الداعى المكاسر ، أو الداعى المكالب ــ وهو أدنى طبقات هذا الجهاز ــ مثلا ، وظيفته التى لا يتعداها هي تشكيك الجماهير فى عقيدتهم وانتهاز كل فرصة أمامهم لالقاء الأسئلة الدقيقة على العلماء والفقهاء . وهى أسئلة تدور حول مشكلات الدين أو تفسير بعض المتشابه من آيات القرآن . يلقى هذه الأسئلة فى براءة كأنه طالب علم يريد الافادة . فاذا ظهر عجز العالم والتف حوله الناس يلتمسون عنده الجواب زادهم حيرة بمزيد من الأسئلة دون أن يجيب . مثل : لِمَ جعل الله السموات سبعاً ولم يجعلها أكثر أو أقل ؟ ولِمَ أوجب الغسل من المنى مع طهارته واكتفى بالاستنجاء من البول مع نجاسته ؟ ولِمَ كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ وما معنى الحروف التى فى أوائل السور ؟ ومن هم حملة العرش الثمانية ؟.. الى مثل هذه الأسئلة التى يستطيع القارىء أن يراجع نماذج منها فى خطط المقريزى(١٩) . يوجه الداعى مثل هذه الأسئلة للعلماء كأنه يطلب الاستفادة ، ويوجهها للناس

مظهراً حيرته كأنه يشك فى العقيـدة . يفعل ذلك وهو فى الوقت نفسه يظهر النسك والتعبد . ويبدو أمام السني سنياً متطرفاً ، وأمام الشيعي شـيعياً متعصباً ، وأمام الصوفي صوفياً من الأقطاب . فاذا أنس من أحدهم ميلاً اليه وتطلعاً الى الخروج من هذا الشـك بالعلم اليقين ، أوصله بعد مراوغة وتمنع الى داع أرقى منه مرتبة ، مهولا للفريسـة قبل أن يلقاه فى غزارة علمه وتضلعه الذى يزول عنده كل شك . كل هذا والغِر الذي وقع في شباكهم لا يعلم الصفة المذهبية للداعى . ولا يزال يتنقل بين الدعاة فى مختلف المراتب ، كلما استوثق منه داع نقله الى الأعلى منه ، وخطا به خطوة جديدة فى المـكاشفة بأسرار المذهب(٢٠) .

ويَختار الامام من رؤساء الجزر مجلسه الذي هو بمثابة القيادة العليا للدعوة وعلى رأسـه (داعى الدعاة) ، الذى يعتبر أعلى مرتبـة ظاهرة . والى جانب ذلك توجد مناصب أخرى سرية تعتبر ضمن هـذا الجهـاز الأسـاسى الذى يحيط بالامام . مثل

(حجة الامام) الذى لا يعرفه أحد حتى داعى الدعاة نفسه ، و (باب الأبواب) الذى لا يعرفه الا الامام نفسه ، (وداعى البلاغ) . وأعمـــال هذه الرتب ووظائفها وأسـماء الذين شغلوها لا يزال سراً لم يكشف عنه البحث حتى الآن(٢١) .

وكانت الدعوة تجرى على نسق الجمعيات السرية كالماسونية فى مراتب متدرجة فى الأهميـــة عددها تسع . يتنقل فيها التابع طبقاً لاستعداده ولثقـــة القـــائمين على الدعوة فى صدق استجابته واخلاصه وقدرته على كتمان الأسرار . ويقطع على نفسه عند دخـــوله فى الدعوة الأولى عهداً يتعهد فيــه (بأن لا يفشى لهم سراً ، وأن لا يظاهر عليهم أحداً ، وأن لا يطلب لهم غيـــلة ، وأن لا يكتمهم نصحـــاً ، ولا يوالى لهم عـــدواً) . ثم يطالبـــه الداعي بعد ذلك بمبلغ من المال يقدره ، حسب ما يعرفه من حالتـــه المالية ، وهو رسم الدخول فى الدعوة(٢٢) .

وقد أورد لنا المؤرخون المتأخرون مثل النويرى

والمقريزى مما أدركوه من بقايا تراث الشيعة شذوراً ضافية من محتويات الدعوة السرية وتفاصيلها . والذى يقرأ ما جاء فيها يدرك بوضوح أن الدعوة الباطنية تذهب الى أبعد من التبشير بالمذهب الفاطمي والدعوة لآل البيت . فهى تستحيل في آخر الأمر الى عقيدة فلسفية متحررة مشبعة بالالحاد وانكار الديانات كلها(٢٣) .

وقد كان التأويل هو الباب الذى يدخل منه الباطنية الى أغراضهم الهدامة . ذلك أنهم يزعمون لأتباعهم أن لكل ظاهر محسوس تأويلا باطنياً لا يعرفه الا الراسخون فى العلم وهم الأئمة . وعنهم وحدهم يؤخذ هذا العلم الذى يرثونه خلفاً عن سلف . وزعموا أن علم الباطن من عند الله ، خص به علي بن أبى طالب ، فخص النبي بالتنزيل وخص علياً بالتأويل(٢٤) . وورث الأئمة من نسله التأويل. والباطنية يشتركون مع فرق الشيعة الأخرى فى ولاية الامام (أى معرفته والانقياد التام له واعتقاد عصمته) ويجعلونها أساساً للعبادات كلها لا تصح

بغيرها(٢٥) . ولكنهم ينفردون دونهم بما يضفونه على الامام من صفات لا تعرفها فرق الشيعة الأخرى ، وهى صفات ترفع أئمة الشيعة الباطنية الى مرتبة لا تكاد تمت فيها للبشرية بصلة . ففى تأويلاتهم الباطنية أن الامام هو (وجه الله) و (يد الله) و (جنب الله) ، وأنه هو الذى يحاسب الناس يوم القيامة فيقسمهم بين الجنة والنار . وهو (الصراط المستقيم) و (الذكر الحكيم) و (القرآن الكريم)(٢٦) وتأويل الصلاة عندهم هو الاتجاه القلبى للامام . وتأويل الصوم هو عدم افشاء أسرار الدعوة . وتأويل الحج هو زيارة الامام(٢٧) .وجعلوا أسماء الله الحسنى التى جاءت فى القرآن الكريم أسماء لما سموه (العقل الكلي) زاعمين أنهم ينزهون الله عن جميع ما يليق بمخلوقاته من الأسماء والصفات . وأطلقوا على (العقل الكلى) اسم (المبدَع الأول) أو (السابق) . وهو فى زعمهم المرموز اليه فى القرآن ب (القلم) . ثم قالوا ان (العقل الكلى) أبدع (النفس الكلية) أو (المبدَع الثانى) أو (التالى) ، وهو فى زعمهم المرموز اليه فى القرآن

بـ (اللـوح المحفوظ) وقالوا ان (اللـوح) له صـفات (القلم) نفسـها ، وهي أسماء الله الحسنى ــ جل وعلا ــ ولكن القلم أفضل بالسبق . وقالوا ان (القلم واللوح) أو (السابق والتالى) اشتركا فى ايجاد المخلوقات . ومن هذا نرى أن كل ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خلعه الباطنية على (العقل الكلى) . ثم ذهبـوا ــ حسب عقيـدتهم فى المثل والممثول ــ الى أن العقل الكلى فى العالم العلوي يقـابله الامام فى العـالم الجسماني . فكل صفات (العقل الكلى) هى أيضاً صفات للامام . لأن الامام (مَثَل) للعقل الكلى . فالامام اذن هو الواحـد الأحد الفرد الصمد المنتقم الجبار .. الخ . ويبدو ذلك واضحاً جلياً فى شعر شعرائهم الذى مدحوا به الأئمة(٢٨) .

وواضح من ذلك كله أن عقـائد الباطنية مزيج عجيب من المذاهب والآراء الفلسـفية القـديمة . لذلك كان من أصَحّ ما وُصفت به أهـداف هـذه الدعوة ما قاله رينهارت دوزى R. DOZY فى برنامج

عبد الله بن ميمون حين وصفه بأنه يهدف الى الجمع بين أحرار المفكرين الذين لا يرون فى الدين سوى وسيلة لاستعباد الشعوب ، وبين الغلاة من جميع الطوائف . وأن يجعل من المؤمنين السذج آلات صماء تمد المتشككين بالقوة ، وأن يتخذ من هذا الجهاز الضخم وسيلة لرفعه أو رفع أبنائه فى الوقت المناسب الى الملك . لذلك لم يبحث عبدالله بن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين صفوف الشيعة الخلص ، ولكن بين الثنويين وطلاب الفلسفة اليونانية . ولم يكن يعتمد الا على الطائفة الأخيرة . واليهم وحدهم كان يفضى بسره ، وهو أن الأئمة والأديان والاخلاق ليست الا ضلالا وسخرية ، وأن باقى البشر ــ أو الحُمُرَ كما كان يسميهم ــ ليسوا أهلا لفهم هذه المبادىء . وكان يحرص أشد الحرص على أن لا يتجاوز المتدينون الذين يخدعون بدعوته ويخلصون له الطاعة المرتبة الأولى من دعوته(٢٩) .

أصبح أتباع الدعوة الباطنية ــ والقرامطة منهم على الخصوص ــ قوة رهيبة تبعث الرعب فى القلوب

منذ القرن الرابع . ففاضت كتب التاريخ بأخبار غاراتهم الوحشية المدمرة على المدن الآمنة وعلى قوافل الحجاج . ومن أفظعها ما رواه ابن الأثير فى حوادث سنة ٣١٧ من غارة أبى طاهر القرمطي على مكة يوم التروية ــ وهو اليوم الذى يسبق وقفة عرفة وفيه يتجمع الحجاج فى مكة للخروج الى منى ــ ونَهبِه الحجاج وقتلهم فى المسجد الحرام وفى داخل الكعبة ، وقَلعِ الحجرِ الأسود وانفاذه الى هجر(٣٠) ، وقَلعِ باب البيت والميزاب ، وطَرحِ القتلى فى بئر زمزم وقَسم كسوة الكعبة بين أتباعه(٣١) .

وزاد فى خطورة الباطنية أنهم كانوا يعتصمون بجهاز دقيق التنظيم يعتمد على تخطيط محكم . فكانوا يعيشون فى ستر ، لا يعرف أحد حقيقة مذهبهم . وعندما تُواتِي الفرص كان يظهر للناس أن عدداً كبيراً منهم يعملون في بلاط الأمراء والخلفاء ويندسون بين صفوف العامة دون أن تُعرَف حقيقتهم ، فكانوا في مراكزهم هذه يمهدون السبيل لسيادة دولتهم في انتظار الوقت الملائم(٣٢) .

والواقع أن سلوك الفاطميين والقرامطة كما تمثله كتب التاريخ من أقوى الدلائل على عدائهم للاسلام والمسلمين . فمن ذلك جرائم القرامطة الوحشية التى تصور تعطشاً الى دماء المسلمين . ومنه اجتماعاتهم الصاخبة التى يبيحون فيها نساءهم لرفقاء الدعوة ، الى جانب ما شاع من اباحتهم اللواط(٣٣) . ومنه توسع الفاطميين فى استخدام اليهود والنصارى ، وفى توليتهم الوزارة وتحكيمهم فى رقاب المسلمين وبذلهم غاية التسامح لهم والتكريم ، في الوقت الذى كانوا يُضيِّقون فيه على أهل السنة الى حد الاضطهاد . حتى لقد قال شاعرهم (الرضى بن البواب) حين عظم نفوذ اليهود وشغلوا مناصب الدولة فى عهد المستنصر ، وكانت أُمه أمة فى بيت أبى سعيد التسترى اليهودي(٣٤) .

يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو
ومنهم المستشار والملك

يا أهـل مصر لقـد نصحت لـكم
تهـو ّدوا فقـد تهـود الملك

ومما ترويه كتب التاريخ فى هذا الباب قصة المرأة التى عرضت للعزيز بن المعز فى موكبه مادّة يدها بورقة كأنها ظُلامة . فلما فضها وجد فيها : (بالذى أعز اليهـود بمنَشا والنصارى بعيسى بن نسطوروس ، وأذل المسلمين بك ، الا ما كشـفت ظلامتى) ــ وكان العـزيز قد ولاهمـا الوزارة ــ وطلبوا المرأة فاذا هي هيكل من جريد النخل(٣٥) . ومما تحفظه كتب التاريخ تنصيب الحاكم بأمر الله خالَيه النصرانيين بطريركين لطائفتيهما فى بيت المقدس وفى القاهرة(٣٦) .

وما ترويه كتب الفرق عن حرصهم الشديد على كتمان دعوتهم وعدم تصريحهم للعـامة بعقيدتهم ، واستعمالهم أبجدية خاصة في تدوين أسرارهم ، مع تلونهم وظهـورهم فى كل بيئـة بما يناسبها ، وتقـربهم الى كـل جمـاعة بمـا يلائم عقـائدهم

وطبائعهم ، كل ذلك يؤكد أنهم أصحاب دعوة سرية هدامة ، وأن أهدافهم الحقيقية تختلف عن ظاهر اقوالهم وأعمالهم(٣٧) .

★★★

هؤلاء هم الباطنيةوالقرامطة كما صورتهم كتب التاريخ والفرق وما ظهر للناس من كتبهم . فأين مكان المتنبى من هذه الصورة ومن هذه المبادىء ؟

لم تتجه عناية الذين أرخوا للمتنبى من الأقدمين الى هذه الزاوية من حياته وشعره ، فقد كان مذهب السلف فى التراجم والتاريخ يقوم على رواية ما يروون من أخبار يسندونها الى رُواتها ، على علاتها وعلى اختلافها وتعارضها . لأنهم كانوا يرون أن العُمدة فى صحة هذه الأخبار أو فسادها هو صدق رواتها وتحرّيهم ، أو كذبهم وترخّصهم ، وليس للعقل عمل فى ذلك . فقد يكون أبعد الأخبار ن المعقول المألوف هو أدناها الى الصدق ومطابقة لواقع . وقد يكون أقربها الى المألوف هو أبعدها

عن الصدق والصحة . ويتمثل مذهبهم هذا فيما ذكره الطبري في مقدمة تاريخه حين قال :

« وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرتُ ذكره فيه ، مما شرطت أنى راسمه فيه ، انما هو على ما رويتُ من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه، والآثار التى أنا مُسنِدها الى رُواتها فيه . دون ما أُدرك بحُجَج العقول واستُنبط بفِكَر النفوس ، الا اليسير القليل منه . اذ كان العلمُ بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غيرَ واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم الا باخبار المخبرين ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفِكَر النفوس . فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يَعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يُؤتَ فيه من قِبَلِنا ، وانما أُتِيَ من قِبَل بعض ناقليه

الينا . وإنَّا انما أدّينا ذلك على نحو ما أُدِّى الينا . »

وبسبب مذهبهم هذا ، الذى أوضحه الطبري فى مقدمة تاريخه ، حفظوا لنا كل ما تردد فى عصورهم من أخبار ، تاركين لنا تمحيصها سَنَداً ومتناً . وبذلك اتسعت مذاهب المحدثين في ذلك واختلفت نتائج بحوثهم . ولو أن الأقدمين اختاروا بأذواقهم وعقولهم واستنباطهم احدى الروايات لضاع علم كثير ، ولفرضوا علينا آراءاً لا يتفق الباحثون فى الاجتماع عليها .

هذا هو مذهبهم فى دراسة التاريخ . أما مذهبهم فى دراسة الأدب فقد كان يقوم على دراسة النص ، والاستطراد فى شرحه الى ما يفسره وما يتصل به من تاريخ وفلسفة ولغة ونحو ونقد . وكلها علوم تقوم على الرواية ، فيما عدا النقد الذى يعتمد على الذوق . وكان هذا المذهب الذى نسميه اليوم استطراداً مذهباً مقصوداً يستهدف

التكامل فى ثقافة دارس الأدب ، يتعرف من خلاله على علوم العصر ومعارفه المختلفة . وهو ما تُبرزه كلمة ابن خلدون المشهورة عند تعريفه للأدب فى مقدمته حين قال انه (الأخذُ من كل علم بطَرف). وقد عاد بعض القائمين على الدراسات التربوية فى الغرب يتكلمون اليوم عن ضرر التخصص الضيق الذى يحصر الطالب فى فرع من الدراسة لا يتعداه، ويطالبون بالثقافة المتكاملة التى تجمع بين الآداب والفنون والعلوم والتى لا تحصر المتخصِّص فى فرع تخصصه وحده .

ظلت الدراسة الأدبية تسير على ذلك النحو ، حتى نشأ عندنا فى القرن الأخير ما سميناه « تاريخ الأدب » بمناهجه الثلاثة المعروفة : المنهج التاريخي والمنهج النفسى والمنهج النقدي ، نقلا عن الأوربيين فى دراساتهم لآدابهم وفى دراساتهم لتاريخ الأدب العربي والفكر الاسلامي ، ضمن ما يقوم به المستشرقون من دراسات اسلامية تحاول أن تكشف

عن الأصول الفـكرية والاجتماعية والسياسية فى الشعوب الاسلامية التى ارتبطت بها مصالحهم .

وكانت هذه الدراسة المستحدثة لتـاريخ الأدب العـربي تعتمد على دراسة النص فى ظل المؤثرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافيـة التى أنتجته ، وفى ظل دراسة السيرة الشخصية للأديب ، الذى تركت انفعالاته وعواطفه وأحاسيسه الظاهرة والباطنة بصماتها فيما كتب . وكانت هذه الدراسة تحاول ، قـدر الاستطاعة ، أن تستخرج القصـة الكاملة للنص ولكاتبه ولعصره ، بمقابلة النصوص الأدبية والتاريخية والسير الشخصية بعضها ببعض، لتكمل ما فى بعضها من نقص بما فى بعضها الآخر مما يسد هذا النقص ، ولكي تصل الى الحقيقة حين تتعارض هذه الأصول ، وتملأ ما فى الصورة العامة من فجوات ، بمزيج من الخيال والمنطق .

فى ظل هذه الدراسة المستحدثة ظهرت دراسات تحاول أن تعلل ظاهرة السخط والثورة التى تمـلأ

ديوان المتنبى . فذهب بلاشير الى أن المتنبى لم يكن قرمطياً ، ولكنه تأثر بآراء القرامطة(٣٨) . وذهب ماسينيون الى أنه كان قرمطياً(٣٩) . واتبع طه حسين رأي بلاشير وبالغ فيه ، فبنى كتابه عن المتنبى على أنه كان داعية قرمطياً ، وأنه خان القرامطة في آخر أيامه، فكان ذلك سبب قتله أو من أسبابه . وناقش عزام أدلة الذين ذهبوا هذا المذهب ، وانتهى الى أن قرمطية المتنبى دعوى يعوزها الدليل(٤٠) .

وذهب محمود شاكر فى كتابه عن المتنبى الذى نشرته مجلة « المقتطف » فى عدد خاص سنة ١٩٣٦م وأعاد نشره سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) الى أنه كان علوي النسب ، اضطره العلويون وأكرهوا جدته على اخفاء هذا النسب ، بعد أن فرقوا بين الزوجين، أبيه وأمه ، لأسباب مجهولة . وبنى بحثه على ذلك . ووجَّه كل ما فى شعره من ثورة الى أنه صدى لمكايد العلويين من ناحية ، ولعصبيته العربية وكراهيته للأعاجم الذين تسلطوا على الدولة وأفسدوها من ناحية أخرى . أدار ثورته السياسية على هذا المحور،

وأدار حنينه وأشواقه وأحزانه على محور آخر ، هو حبه لخَولَة أختِ سيف الدولة وفراقه لها حين فارق اخاها ، ثم موتِها وهو بعيد عنها .

ومع ما فى شعر المتنبى من الدلائل التى تنفى علويته ، وفى مقدمتها الاعتداد بأعمال الناس دون أنسابهم ، فقد كان محمود شاكر أول من فتح الباب بين أدباء العرب المعاصرين للبحث عن علة لشعر المتنبى الثائر والمعارك التى خاضها مع خصومه ، غَيرِ ما كان يتردد فى كتب الأدب القديم والحديث من تعليل ذلك بترفع المتنبى وصلفه وغروره ، الذى جرّ عليه كل ما عاناه من متاعب . وكان أول من أدار حياته وشعره حول هدف سياسى رفيع ، ونزّهه عن أن يكون مريض النفس حقوداً حسوداً . وكان فى الوقت نفسه أول من ناقش دعوى ادعائه النبوّة التى روت كتب التاريخ والأدب أنها كانت سبب حبسه فى أول حياته ، ودلل على فسادها . ووافقه فيما ذهب اليه

عبد الوهاب عزام في كتـابه الذى صدر فى العام نفسه بعد ذلك بأشهُر .

أما نحن فنرجح أن المتنبى كان عدواً للقرامطة خاصـة ، وللباطنيـة على وجه العموم ، وأنه ظل يناصبها العداء ، وظلت هي تتربص به وتكيد له ، حتى ظفرت به وقتلته . ونحن نعتمد فى حكمنا هذا على تدبر شعره فى ضوء ما عرفناه عن الباطنيـة والقرامطة ، وفى ضوء ما نعرفه عن ظروف عصره السياسية والاجتماعية ، وفى ضوء ما يفضى اليـه تمحيص الروايات المتضـاربة التى وصلت الينا عن حياته .

فالقيم التى مجدها المتنبى فى شعره تتعارض مع مبادىء الباطنية والقرامطة ، بل هى تناقض المبدأ الأساسى الأول فى النظرية الشيعية ، وهو «الولاية». والمقصود به عندهم كما قـدمنا هو ولاية الامام . فيجب على الشيعي أن يعرف امام عصره وأن يؤمن بامامته ، بكل ما هو معـروف عندهم من صـفاف

الامامة ، وفى مقدمتها العصمة ، وأن يخلص له وينقاد لأوامره . والولاية عندهم ركن أساسى من اركان الدين ، بل هى الركن الأول الذين تبطل ببطلانه بقية الأركان . والباطنية – ومنهم القرامطة – يغلون فى ذلك غلواً يخرجهم عن الاسلام الى الشرك كما رأينا . فالامام عندهم له صفات الرسل . بل له الصفات التي يجعلها المسلمون من أسماء الله الحسنى – جل وعلا – والامام لا يبلغ هذه المرتبة بالاجتهاد فى تزكية نفسه وتطهيرها ، ولكنه يرثها بنص من الامام السابق الذى يعتمد فى ذلك على الوحي . فالنظرية الشيعية – والباطنية على وجه الخصوص – تعتمد على الوراثة ولا مكان فيها للكسب . فسبيل الشيعي الى المثل الأعلى هو التغنى بآل البيت الذين هم سنده وعدته وذخره ، والتعلق بهم ، والتفانى فى الانقياد للامام . وشعر المؤيد فى الدين داعى الدعاة مثل حي لتصوير هذه القيم . وقد وصف ذلك الشاعر الذى كان يشغل أكبر منصب من مناصب الجهاز الظاهر فى الباطنية الفاطمية ، مقابلته الأولى للخليفة

الفاطمي المستنصر وصفاً تبدو فيه هذه القيم فى أجلى صورها ، فقال فى كتابه (السيرة المؤيدية)(٤١) :

« وكنت فى مسافة ما بين السقيفة الشريفة ، والمكان الذى ألمح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية . فلم تقع عينى عليه الا وقد أخذتنى الروعة وغلبتنى العَبرة ، وتمثل فى نفسى أننى بين يدي رسول الله وأميرِ المؤمنين ماثل ، وبوجهى الى وجهيهما مقابل . واجتهدت عند وقوعى على الأرض ساجداً لولى السجود ومستحقه أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه ، فوجدته بعجمة المهابة معقوداً وعن مزية الخطابة معزولا ... ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول . وكلما استرد مني الحاضرون كلاماً ازددت اعجاماً ، ولعقبةالعي اقتحاماً . وهو ـ خلد الله ملكه ـ يقول: دعوه حتى يهدأ ويستأنس . ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها ، وتركتها على عينى وصدرى ، ودعيت . وخرجت » .

أما المتنبى فهو يعـول فيما يتغنى به من قـيم على الكسب ، ولا يقيم وزناً للوراثة . بل يصـرح بأن الأحساب لا تغنى عن صاحبها شيئاً اذا لم يكن صاحب الحَسَب متصفاً بالخُلق الذي يصدق نسبه ويزكيه . فالذين يتقاربون في الطبائع والخُلق هم الأقرباء ولو تباعدت بينهم الأنساب . والذين يتباعدون فى الطبائع والأخلاق ليسوا بأقرباء وان جمعت بينهم الأنساب . فالعلوي عند المتنبى علوي بأعماله لا بنسبه . يقول في قصيدة مدح بها أحد أشراف العلويين فى الرملة ، بعد تمنع من جانبه ، والحاح من والى الأخشيديين فى المدينة(٤٢) :

نصـرت علياً يا ابنـه ببـواتر
من الفعل لا فَلٌّ لها فى المضارب

اذا لم تكن نفس النسيب كأصـله
فما ذا الذى تغنى كرام المناصب

وما قَرُبت أشباهُ قـوم أباعد
ولا بَعُدت أشباه قـوم أقارب

ويقول من قصيدة في مدح كافور الاخشيدي(٤٣) :

وآنف من أخي لأبي وأمي
اذا ما لم أجده من الكرامِ
أرى الأجداد تغلبها كثيراً
على الأولاد أخلاقُ اللئامِ
ولست بقانع من كل فضل
بأن أُعزَى الى جَد هُمامِ
عجِبتُ لمن له قَدٌّ وحَدٌّ
وينبو نبوة القَضِمِ الكَهامِ
ومن يجد الطريق الى المعالى
فلا يذر المطيَّ بلا سنامِ
ولم أر في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمامِ

وتتلخص القيم الخلقية التي مجدها المتنبي وملأ بها شعره في صفات العفة المترفعة عن الشهوات ، والمروءة والفتوة والاباء وتحمل تكاليف الجهاد . وهي كما رأينا صفات لا يقيم لها القَرمطي وزناً .

فالداعى الباطنى يحصر كلامه فى التغنى بالامام وفى جمع القلوب عليه . وهو يرى أن هذه القيم الخلقية لا تغنى عن صاحبها شيئاً اذا لم يتول الامام. فاذا تولى الامام فالانحراف عنها ليس بذى خطر . بل شريعة الباطنيين والقرامطة تبيح لأتباعها المحرمات وتسقط عنهم التكاليف كما رأينا .

يقول المتنبى فى احدى قصائده الشامية فى أنطاكية(٤٤) :

انِّى على شغفى بما فى خُمرها
لأعف عما فى سرابيلاتها

وترى المروءةَ والفتوةَ والأبو
ة فيَّ كلُّ مليحة ضراتِها

هن الثلاث المانعاتى لذتى
فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها

ومَطالب فيها الهلاك أتيتُها
ثبتَ الجَنان كأننى لم آتها

ويقول في احدى كافورياته(٤٥) :

وللسر مني موضع لا يناله
نديم ولا يُفضِي اليه شراب

وللخَود مني ساعة ثم بيننا
فلاة الى غير اللقاء تُجاب

وما العشق الا غِرةّ وطماعة
يعرّض قلب نفسه فيصاب

وغيرُ فؤادى للغوانى رَميَّة
وغيرُ بنانى للزُجاج رِكاب

تركنا لأطراف القنا كل شهوة
فليس لنا الا بهن لِعاب

أعزُّ مكان في الدُّنا سرجُ سابح
وخير جليس في الزمان كتاب(٤٦)

ويقول من قصيدته التى مدح بها دَلِّير بن لشكَروَزّ قائد جيوش الخلافة لانجاد الكوفة(٤٧) :

مُحِب كَنَى بالبيض عن مرهفاته
وبالحسن في أجسامهن عن الصقل

، والسمر عن سمر القنا غير أنني
جناها أحبائي وأطرافها رسلي

...مت فؤاداً لم تبت فيه فضلة
لغير الثنايا الغر والحدق النجل

.. يدي أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

.. يدين لقيان المعالي رخيصة
ولا بد دون الشهد من ابر النحل

والمتنبي مع ذلك لم يمدح من العلويين الا .. جلين ، أحدهما العلوي الذي كان يقيم في الرملة ، الذي أشرنا الى أبيات من القصيدة التي مدحه بها ، والآخر هو محمد بن عبد الله العلوي الذي كان يسكن الكوفة . وقد مدحه في صباه قبل أن .. حل عن العراق الى الشام(٤٨) .

بل نحن على العكس من ذلك نجد في شعره تعريضاً ببعض العلويين وتهكماً بهم . فهو يتهم بعض العلويين في (طَبَرِيَّة) بأنهم أدعياء ، فيقول

من قصيدة له فى مدح التنوخيين بالشام . وكان قد رحل عنهم الى طبرية . ولكنه لم يلبث أن عاد ساخطاً على العلويين الذين بها(٤٩) :

لولاك لم أترك البحـــيرة والغَـــ
ـــورُ دفيء ومـــاؤها شَـــبِمِ(٥٠)

ثم يقول بعد أبيـــات وصف فيها جمال البحـــيرة وما يحفها من مناظر خلابة :

يشـــينها جريهـــا عـــلى بلـــد
تشـــينه الأدعيـــاءِ والقُـــزُمُ

ويقول فيهم من قصيدة أخرى مدح فيها الحسن ابن عبد الله بن طغج ـ وهو ابن أخي الاخشـــيد ـ في الرملة(٥١) :

وفارقت شر الأرض أهـــلا وتربة
بهـــا علوي جَدُّه غـــيرُ هاشمِ

ويقول في التعريض بآخـــرين يدَّعـــون النسب العلوي ، فيتهكم المتنبى بجهلهم ، لأن الذى يدَّعون

الانتساب اليه ليس له نسل(٥٢) :

أماتكُمُ من قبل موتكم الجهل
وجركم من خفة بكم النملُ
ولو كنتمُ ممن يدبّر أمرَه
لما كنتمُ نسلَ الذى ماله نسلُ

ويقول ، حين بلغه أن بعض مدعى العلوية قد اعدوا له كميناً فى (كفر عاقب)(٥٣) :

اتانى وعيد الأدعياء وأنهم
أعدوا لى السودانَ فى كَفرِ عاقب
فلو صدقوا في جَدّهم لحذرتهم
فهل فيّ وحدى قولُهم غيرُ كاذب ؟

فهل المقصودون بالتعريض هم أدعياء طبرية الذين أشار اليهم من قبل كما فسره ابن جنى ؟ ذلك ممكن. ولكن (كفر عاقب) التى يذكر الشاعر أنهم قد اعدوا له فيها كميناً قرية من أعمال حلب . وأين حلب من طبرية ؟ أم أن الشاعر يعرّض في ... بالاسماعيلية من دعاة الفاطميين الذين كانوا

منتشرين فى كل مكان ، وفى الشام ومصر على وجه الخصوص ؟ من الجائز على كل حال أن يكون المقيمون فى طبرية من عملاء الاسماعيلية ودعاتهم ؟ والا فكيف يُتَصوَّر أن ناساً يسكنون فى طبرية يُعِدون كميناً فى حلب مالم يكونوا منتمين الى احدى العصابات أو الجماعات الدقيقة التنظيم؟.

شعر المتنبى مملوء بذكر هؤلاء الكائدين الذين تعقبوه فى كل مكان ، وطاردوه فى كل بلد ذهب اليه من بلاد الشام ، حتى تركوه فى قلق لا يعرف معه طعم الاستقرار . يقول من قصيدة له فى ابن عمَّار الأسدي ــ وكان يلى قتال طبرية للخلافة العباسية(٥٤) :

ألفتُ ترحُّلى وجعلت أرضى
قُتودي والغُريري الجُلالا(٥٥)
فما حاولت فى أرض مقاما
ولا أزمعت عن أرض زوالا
علَى قلق كأن الريح تحتى
أوجهها جنوباً أو شمالا

ارى المتشاعرين غُروا بذمى
ومن ذا يحمد الداءِ العُضالا
ومن يك ذا فم مُر مريض
يجد مُراً به الماءَ الزُلالا

ويقول ، وقد مر بمدينة (جَرَش) متعجلا ، معتذر الى صديق له بها(٥٦) :

لا تنكرنَّ رحيلى عنك فى عجل
فاننى لرحيلى غيرُ مختارِ
وربما فارق الانسان مهجته
يوم الوغي غيرَ قال خشيةَ العارِ
وقد مُنيتُ بحساد أحاربهم
فاجعل نداك عليهم بعضَ أنصارى

ويصور المتنبى هؤلاء الأعداء الذين يترصدونه فى أسفاره ، فيصفهم بأنهم لصوص يقطعون الطريق ويعيشون فى أعماق الصحراء ، يرتدون ثياباً بالية لا تكاد تستر أجسادهم ، ويعيشون على ما يجدونه فى الصحراء القاحلة من بيض الضب .

فاذا مر بهم أخذوا يتفرسون فيه ويسألونه عن اسمه ، وكأنهم يشكون فى أنه هو المتنبى . فيبالغ فى التظاهر بالجبن وعدم الخبرة بالقتال ، وبالجهل وعدم القدرة على اعراب الكلام . ومع ذلك يكاد ما طُبِع عليه من الفصاحة أن يفضحه . وكأنما كانت متاعب المتنبى وكثرة أعدائه وتعرضُه للخطر تأتيه من فطنته ومن غباء الناس ، ومن ادراكه ما لا يدركون . يقول فى احدى قصائده الشامية بأنطاكية(٥٧) :

أفاضل الناس أغراضٌ لذا الزمن
يخلو من الهمّ أخلاهم من الفِطَنِ
وانما نحن فى جيل سواسية
شر على الحُر من سقم على بدنِ
حولى بكل مكان منهم خِلَقٌ
تُخطِي اذا جئت في استفهامها بمنِ
لا أقترى بلداً الا على غَرَر
ولا أمُرُّ بخَلق غير مضطغنِ
ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً
الا أحق بضرب السيف من وثنِ

وُمدقِعين بسُبروت صحبتُهم
عارين من حُلل كاسين من دَرَنِ (٥٨)
خُرّابُ بادية غرثى بطونهم
مَكن الضِباب لهم زاد بلا ثمنِ (٥٩)
يستخبرون فلا أعطيهم خبرى
وما يطيش لهم سهم من الظِنَنِ
وخَلّة من جليس أتقيه بها
كيما يرى أننا مثلان فى الوهنِ
وكلمة في طريق خفت أُعرِبها
فيُهتدَى لى فلم أقدر على اللحنِ

ويقول فى احدى كافورياته ، مصوراً ترصد أعدائه له وهو فى طريقه الى مصر(٦٠) :

فلو لم تكن فى مصر ما سرت نحوها
بقلب المشوق المستهام المتيم
ولا نبحت خيلى كلابُ قبائل
كأن بها فى الليل حملات ديلم
ولا أتّبعَت آثارَنا عينُ قائف
فلم تر الا حافراً فوق منسِمِ

ويصور هربه من مصر وسط جماعة من غلمانه المدربين على القتال(٦١) :

تُبدِّل أيامي وعيشي ومنزلي
نجائبُ لا يُفكِرن في النحس والسعد

وأوجهُ فتيان حياء تلثموا
عليهن لا خوفاً من الحر والبرد

وليس حياءُ الوجه في الذئب شيمة
ولكنه من شيمة الأسد الوَرد

اذا لم تُجِزهم دارُ قوم مودة
أجاز القنا ، والخوفُ خير من الود

من هم هؤلاء الأعداء الذين ملؤوا حياة المتنبى وشعره ، وترصدوه فى بلاط الملوك والأمراء ، وفى رحلاته فى الصحراء ؟ وهل كانوا يعادونه لأسباب شخصية أم لأسباب سياسية ؟ ان سلوك المتنبى ومزاجه الحاد كان خليقاً أن يثير عليه كثيراً من العداوات . ولكنا لا نستطيع أن نُخلى هذه العداوات والمكايد من الدوافع السياسية . فشعر المتنبى مملوء بالثورة على الظلم وعلى الأوضاع

الفاسدة التى كانت سائدة في عصره(٦٢) ففى صباه المبكر في الكوفة نجده يقول(٦٣) :

الى أي حِـــين أنت في زي مُحـــرِم
وحـــتى متى في شـــقوة والى كَـمِ
والاَّ تمُت تحت الســيوف مــكرماً
تَـمُت وتقــاس الــذل غيرَ مكرَّمِ
فثِب واثقـــاً بالله وثبــة ماجــد
يرى الموتَ في الهيجا جَنى النحلِ في الفمِ

ويقول في شامياته الأولى(٦٤) :

لأترُكَنَّ وجوه الخيــل ساهمــة
والحــربُ أقومُ من ساق على قدمِ
والطعنُ يُحرقهــا والزجرُ يقلقها
حــتى كأن بهــا ضرباً من اللَّـمَمِ
بكل منصــلت مازال منتظــرى
حــتى أدلتُ به من دولـــة الخدمِ

وفى البيت الأخــير تعريض بخلافة بغداد التى يسميها (دولة الخدم) . وفيه تصريح بالاعداد لثورة

يتولى هو قيادتها . بل هو يذهب فى التصريح الى أبعد من ذلك فيقول :

ميعادُ كلِّ رقيق الشَّفرتين غداً
ومن عصى من ملوك العُرب والعجمِ
فاِن أجابوا فما قصدي بها لهُمُ
وان تولوا فما أرضى لها بهمِ

ويقول فى قصيدة يمدح بها صديقاً له كان يسكن فى جبل (جَرَش)(٦٥) :

لا افتخار الا لمن لا يُضام
مُدرِك أو محارب لا ينام
ليس عزماً ما مرَّض المرءُ فيه
ليس هَمّاً ما عاق عنه الظلام
واحتمالُ الأذى ورؤية جانيـ
ـه غذاء تَضوَى به الأجسام
ذَلَّ من يغبط الذليلَ بعيش
رُب عيش أخف منه الحِمام
كلُّ حِلم أتى بغير اقتدار
حُجة لاجىء اليها اللئام

اقـــراراً ألَـــذُّ فـــوق شرار
ومَرامـــاً أبغى وظُلمى يرام ؟
دون أن يشرق الحجـــازُ ونجد
والعـــراقان بالقنـــا والشام ؟

ويندد الشـــاعر فى قصيدة أخرى من قصـــائده الشاميـــة بحيـــاة التـــرف والفســـق ، مهـــدداً بالانتقام(٦٦) :

ولا تحســـبَنَّ المجـــد زِقّاً وقينـــة
فما المجد الا السيفوالفَتكَة البِكر
علىَّ لأهل الجَـور كـــلُّ طِمِـرَّة
عليها غلام مِلءُ حيزومه غِمر(٦٧)

ويصور سخطه على ما آل اليه أمر الخلافة ، بعد أن تحكم فيها الســـفهاء والجهـــال من جنود الترك فبغوا وأفسدوا وأغرقوا أنفسهم فى الترف(٦٨) :

وانمـــا النـــاسُ بالملـــوك ولا
تُفلِـــح عُـــرب ملوكُهـــا عَجَم
لا أدب عنـــدهم ولا حســـب
ولا عهـــود لهـــم ولا ذِمَم

بكـل أرض وطئتُها أمـم
تُرعَى بعبـد كأنهـا غنم
يَستخشِنُ الخَزَّ حين يلبسه
وكان يُبرَى بظفره القلم

ويقول مصوراً ترف الحكام وضعف هممهم(٦٩):
فؤاد ما تسلّيه المُدام
وعمر مثلُ ما تَهَبُ اللئام
ودهر ناسُه ناس صغار
وان كانت لهم جثث ضخام
أرانبُ غيرَ أنهُمُ ملوك
مفتَّحة عيونُهم نيام
بأجسام يَحَرُّ القتلُ فيها
وما أقرانها الا الطعام
وخيل ما يَخِرُّ لها طعين
كأنَ قنا فوارسها ثُمام(٧٠)
ولم أر مثلَ جيراني ومِثلي
لِمثلي عند مثلِهمُ مقام

بأرض ما اشتهيتَ رأيتَ فيها
فليس يفوتها الا الكرام
فهلاّ كان نقصُ الأهل فيها
وكان لأهلها منها التمام

ويقول فى احدى مدائحه لسيف الدولة ، موازناً بين جِدّه في حرب الروم ، وبين لهوهم وعبثهم :
الهى الممالكَ عن فخر ذهبتَ به
شربُ المدامة والأوتارُ والعود(٧١)

ويقول فى القصيدة التى بعث بها اليه من الكوفة ، حين استدعاه بعد عودته من مصر فاعتذر :
ما الذي عنده تُدار المنايا
كالذى عنده تدار الشَّمول(٧٢)

في ظل هذا الشعر الثائر نستطيع أن نناقش قصة ادعاء أبى الطيب النبوة التى لقب من أجلها فيما يقولون بالمتنبى . ناقش محمود شاكر النصوص التى وردت فى كتب الأدب والتاريخ

القديم وفنّدها جميعاً لتهافتها وتفاهتها في مثل ما روته من معجزاته وقرآنه . فمعجزاته المزعومة تافهة لا تجوز على أحد ، والقرآن المزعوم ضرب من الهذيان لا يليق بمن هو فى مثل منزلته من قوة البيان . وبيّن تناقض ما رُوِى فى هذا الصدد من أخبار اذا عورض بعضه ببعض من ناحية ، واذا عورض في جملته بشعره من ناحية أخرى ، ولا سيما الشعر الذى قاله فى سجنه يستعطف به الوالى لاطلاقه . فهو يخلو خلواً تاماً من أى اشارة الى اتهامه بادعاء النبوة . ورد محمود شاكر سجن المتنبى الى عداوته للعناصر الدخيلة من العجم والديلم والترك من خدم الخلفاء ، الذين استولوا على السلطة وحجبوا الخلفاء عنها . ثم الى اتصاله ببنى حمدان أعداء الفاطميين ، الذين كانوا يطمعون بعد الزحف الى مصر فى ضم بلاد الشام ، ثم الى ما يفترضه من اذاعة نسبه العلوى فى الشام، الذى كان العلويون ــ لأمر ما ــ يحرصون على كتمانه . فاجتمعت على المتنبى ــ كما يقول ــ عيون الفاطميين وعيون العلويين وعيون الدولة

القائمة فى الشام . ويعلل محمود شاكر لقب المتنبى بان ابا الطيب كان فى أول أمره متورعاً فى خلقه لا يخرج عن حدود الوقار ، متزمِّتاً لا يلين للشهوات ولا يلقى اليها مقاده ، مترفعاً عن سفساف الأخلاق متمسكاً بمعاليها ، آخذاً نفسه بالجد الذى لا يفتر . وكان لا يقرب التُّهَم ولا يدانيها « فما كذب ولا زنا ولا لاط » ولا أتى منكراً يؤخذ عليه أو يُزَنُّ به . واستمر على ذلك حياته كلِّها . وكان أهل عصره على خلاف ذلك ، وخاصة من انتسب الى الأدب واعتزى الى الشعر . فلا عجب اذا عدَّه أهلُ صناعته من الأدباء والشعراء غريباً عنهم . ويمضى محمود شاكر فى تعليل هذا اللقب ، فيقول ان المتنبى فى أول شعره كان يكثر من ذكر الأنبياء ويردد أسماءهم فى شعره ويشبِّه نفسه بهم ويقيس أخلاق ممدوحيه الى أخلاقهم فى مثل قوله:

ما مُقامي بأرض نَحلة الا

كمُقام المسيح بين اليهود

وقوله فى القصيدة نفسها :

أنا فى أمَّة تداركهـــــا اللـــ
ـــهُ غريب كصـــالح فى ثَمُود

وقوله :

أنا الـــذى بيَّنَ الالـــه به الـ
أقـــدار والمـرءُ حيثُمـا جعله

وكان أيضــاً كثــير الانذار للمــلوك والأمراء بعذاب بئيس سيأتيهم من قـِبـَله كقوله :

ميعادُ كلٍّ رقيــق الشَّـفرتـَين غـداً
ومن عَصَى من ملوك العُـرب والعجم
فان أجابوا فمـا قـَصدِى بهـا لهُمُ
وان تولَّوا فمـا أرضَى لهـا بهِم

يقــول محمود شــاكر ان الشــعراء خافوه على أرزاقهــم حين علا ذكرُه واتصــل سببُه ببدر بن عمَّار ، فنبزوه بالمتنبى لما رأوه من كثرة دوران الأنبياء في شــعره وترفعــه عن مجالس لهوهم .

نبزوه به تندُّراً وأخذوا يذكرونه بهذا الاسم .
فلما كان ما كان من أمر حبسه أحدثوا من هـذا
النّبز قصة مخترعة عن نبوّة زعموا أنه ادّعاها .
ويرى محمود شاكر أن القبض عليه كان سنة
٣٢٢هـ وأن تلقيبه بالمتنبى كان بعد سنة ٣٢٥هـ.
لأن الناشىء قال فيما رواه عنه ياقوت الحموي ان
ابا الطيب كان يحضر مجلسه سنة ٣٢٥هـ بالكوفة
(وهو بَعدُ لم يُعرَف ولم يلقَّب بالمتنبى)(٧٣).

ووافق عبد الوهاب عزام محمود شاكر وطابقه
فيما ذهب اليه، وزاد عليه معارضة النصوص التى
وردت فى ادعاء النبوة عند الخطيب البغدادى فى
« تاريخ بغداد » وعند البديعى فى « الصبح
المُنبِى » بروايتين للثعالبى وابن جِنّى لم يَرِد
فيهما قول صريح عن ادعاء المتنبى للنبوة . وذلك
بالاضافة الى رواية ياقوت فى معجم الأدباء عن
أبى الحسن الناشىء التى اعتمد عليها محمود شاكر
من قبل ، وهى تؤكد أن شاعرنا لم يلقَّب بالمتنبى
قبل سجنه ولا فى السنة التى سُجِن فيها . وتروى

أنه كان ينكر القصة اذا نبزه بها خصومه فى مجلس سيف الدولة . ووثّق عبد الوهاب عزام كذب دعوى النبوة بأن ابن الأثير وغيره رووا أخبار المتنبئين ولم يذكر أحدهم دعوى أبى الطيب. ثم أكّدها بروايات شُرّاح ديوانه على أنه دعا الناس الى أمر وسُجِن فيه ، واختلاف الروايات بعد ذلك فى أنها دعوى نبوّة أو غيرها ، وبشعره الذى قاله فى السجن يستعطف الوالى فى قصيدته:

أيا خَدَّدَ اللهُ وردَ الخُدود
وقَدَّ قُدود الحِسانِ القُدُود

وفيها يقول :

وقيل عدَوتَ على العالَمين
بين وِلادى وبين القُعود
فلا تسمعَنَّ من الكاشحين
ولا تعبَأنَّ بمَحك اليهود
وكُن فارقاً بين دعوى أردت
ودعوى فعلتُ بشأو بعيد

فلو كانت التهمة التى سجن بسببها هى ادعاء النبوة لما أهمل البراءة منها وانكارها فى هذا المقام . ويرجح عبد الوهاب عزام أن لقب المتنبى لحقه بسبب تشبيه نفسه بالمسيح بين اليهود وبصالح فى ثمود ، ثم وُضِعت قصة التنبؤ وشاعت لتعليل هذا اللقب(٧٤) .

ثم صدر كتاب طه حسين عن المتنبى فى العام نفسه . وهو كتاب يُعنَى بالناحية الفنية والنفسية اكثر من عنايته بالناحية التاريخية وبالتدقيق فى تمحيص أحداثها ووقائعها ، فمرّ بهذه الحادثة مروراً سريعاً واكتفى بالاشارة الى أن شعر المتنبى الثائر وحده كاف لأن يدفع به الى السجن(٧٥) .

ثم انى أضيف الى ذلك كله أن المتنبى ــ وهو لقب عُرِف به ، نُسمِّيه به ولا نَعنِى دلالته ــ قد عرف خطر القرامطة وخطر هذه الأجناس الدخيلة على الأمة وعلى الدين ــ وسوف نزيد ذلك بياناً ــ ثم وقعت هذه المعرفة منه موقع اليقين

الذى ملأ نفسه واستغرق فكره وهمَّه وطاقته .
فليس بمستبَعد فى مثل هذا الحال أن يستقر فى نفسه شعور بأن التنبيه الى خطر هذه الفِرقة واجب عليه أن يحمله ، وتكليف لا تبرأ ذمته أَمام الله الا بابلاغه واذاعته . ومثلُ هذا الاحساس شيء مألوف فى حياة كثير من المصلحين وأصحاب الدعوات ، لا يطعن في دينهم ولا يدعو الى اتهامهم بالتنبؤ ، لأن يقينهم بهذا التكليف يزيد من صلابتهم فى الدعوة الى ما يَدعون اليه ، وفى الصبر على احتمال ما يلاقون فى سبيلها من مكاره . وقد يعنى أن هذه رسالتهم فى الحياة وواجبهم الذى يحاسبهم الله على التفريط فيه . ولكنه لا يعنى أنهم رُسُل يوحَى اليهم . بل ان كثيراً من أصحاب الدعوات يقع في نفوسهم هذا الاعتقاد الراسخ ، ثم لا يكون ذلك داعياً لفساد عقيدتهم ولا لاتهامهم بهذا الفساد .
ولكن أبا الطيِّب قد ركب أمراً عظيماً بمخاصمة جماعة سرِّية خطيرة . وكان لا بد من اسقاطه فى أعين الناس لكي يُصِمّوا آذانهم عن سماعه .

فى قصيدة المتنبى الداليـــة التى بعث بهـا من سجنه الى والى حمص من قِبَل الاخشيد (اسحق بن كيغَلغ) سنة ٣٢ ثلاث حقائق بارزة :

(أ) أنه متهم بالعدوان على جماعة المسلمين .

(ب) أنه سُجِن بتهمة التحريض على الثورة .

(جـ) أن خصومه الذين وشـوا به يهود ، أو هو يَنبِزهم بأنهم يهود .

يدفع الشـاعر التهمة الأولى بأنه كان فى ذلك الوقت صبياً صـغيراً . وربمـا كان معنى ذلك أن التهمة الموجهة اليه كانت في فترة صباه في العراق . وربما كانت هـذه التهمة هى الاشتراك فى بعض غارات القرامطة . وقد كانت كثيرة على الكوفة ، التى اتخذوا معسكرهم فى قرية قريبة منها على ما ذكرناه . وسنعود الى مناقشة هذه المسئلة .

ويدفع المتنبى التهمة الثانية بأن هناك فرقاً بين الثورة وبين ارادة الثـورة . وينبغى أن يحاسب

الناس على ما فعلوا لا على ما يريدون أن يفعلوا . لأن الذى يريدون فعله علمه عند الله .

ثم هو يدفع التهم الموجهة اليه جميعاً بأنها من تلفيق خصومه الذين يصفهم بأنهم يهود . وقد ذكر المتنبى اليهود فى ثلاثة مواضع أخرى من شعره : أشار مرة الى يهوديّ يدسّ له عند بدر بن عمار ، ووصفه بأنه يبطن اليهودية ويظهر الاسلام. وصرح فى موضع آخر باسم ذلك اليهودي وهو (ابن كَروَّس) ووصفه بأنه أعور . وأشار في موضع ثالث الى يهودي كان يمشى بالنميمة والفساد بين التنوخيين في اللاذقية(٧٦) .

وقبل أن نقف عند هؤلاء الكائدين من اليهود الذين نجحوا فى الايقاع بالشاعر والزج به فى السجن ، وقبل أن نقف عند نبشهم تهمة الاشتراك فى الاعتداء على جماعات المسلمين ، نحب أن نمضى مع شعر المتنبى لنلاحظ أن فى هذا الشعر ما يدل على أنه كان يسعى جاداً الى الثورة ويُعد لها . وقد

سلك الى ذلك طريقين . سلك طريق العنف أولا ، فادى به الى السجن . وسلك طريق السياسة ، بالاتصال بأصحاب السلطان محاولا أن يستميلهم أو ان يحظى عندهم بمنصب ذى نفوذ يعينه على تحقيق اهدافه . ويبدو من شعره بوضوح أنه كان يسعى لأهداف سياسية معينة يتكتمها ولا يصرح بها .

أقام المتنبى فى أول عهده بالشام فى قرية تسمى «نحلة» قرب بعلبك . وهناك أخذ يُعد نفراً ممن اجتمع اليه للقتال . ودعا الناس الى دعوته . ولكنه لم يجد منهم اقبالا على الاستماع اليه . ولذلك شبه نفسه بينهم بالمسيح بين اليهود ، وبصالح في ثمود(٧٧) .

ما مقامى بأرض نحله الا
كمُقام المسيح بين اليهود
مَفرَشى صهوةُ الجواد ولكـ
ـنَّ قميصى مَسرودة من حديد
لأمَة فاضَة أَضاة دِلاص
أحكَمت نسجَها يدا داود(٧٨)

أنا فى أمــــة ـ تداركهـــا اللـ
ـهُ ـ غـريب كصـــالح في ثمود

ويتذكر المتنبى هذه الأيام فى آخــر عمره وهو عند عضد الدولة فى شيراز . ويبدو من شعره أنه كان قد قضى فترة من الوقت فى البــادية ، يصيف بين حمص وخُناصِرة ، ويشتو في الصَّحصَحان ، وسط جماعة يتدربون على القتال ، ويعيشون حياة بدوية تعتمد عــلى النهب والغــارات ، وعــلى ما يتصيدونه من وحش الصحراء(٧٩) .

أحب حمصـــا الى خُنــاصِرة
وكــلُّ نفس تحـــب مَحيـَاها
حيث التقى خـدُّها وتفاحُ لبنـا
ن وثغــرى عــلى حُمَيـَّاها(٨٠)
وصِفتُ فيهــا مصـــيف بادية
شـــتوت بالصَّحصَحان مشتاها
ان أعشـَبت روضــــة رعيناها
أو ذُكِرت حِــلــَّة غزوناها

أو عَرَضَت عانــــة مقــزّعة

صدنا بأخرى الجيـاد أُولاها(٨١)

والخيـــل مطـــرودة وطـــاردة

تجـــر طُولَى القنـــا وقصراها

يعجبهـــا قتلهـــا الكُمـــاةَ ولا

يُنظِرها الدهـــرُ بعـــد قتلاها

والمواضع التى أشـار اليهـا المتنبى فى هـذه الأبيات حول حمص هى المواضع التى قبض عليه فيها فى أول حياته فأودع السجن .

وابتغى المتنبى الوسيلة الى تحقيق أهدافه وجمع الناس على دعوته الثائرة بالاتصال بشيوخ القبائل من البدو فلم يلق منهم استجابة . وصـور رحلاته الشاقة وخيبة مسعاه فى كثير من شعره الشامى على وجه الخصوص . يقول في احدى هذه القصائد(٨٢) :

أواناً فى بيـوت البـدو رَحـلى

وآونـــة عـــلى قَتَـــدِ البعير

أُعرِّض للرماح الصُّمِّ نَحري
وأنصب حُرَّ وجهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي
كأني منه في قمر منير
فقُل في حاجة لم أقضِ منها
على شَغَفي بها شروَى نقير
وقِلَّةِ ناصر جُوزيتَ عنها
بِشَر مِنكَ يا شَرَّ الدهور

وحاول المتنبي أن يتصل بذوي النفوذ والسلطان يطلب منهم امداده ومساعدته بالسلاح والرجال حيناً ، ويطمع في أن يظفر بولاية تعينه على تحقيق أهدافه حيناً آخر . طمع عند كافور أن يوليه ولاية أو يعينه بجيش وبدا ذلك منذ القصيدة الأولى فقال(٨٣) :

وغيرُ كثير أن يزورك راجل
فيرجعَ مَلكاً للعراقَين واليا
فقد تهب الجيش الذي جاء غارياً
لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

ثم ألح المتنبى على طلبه فى كل قصائده .

فقال(٨٤) :

فارمِ بى ما أردتَ منى فانى
أسَدُ القلب آدميّ الرُّواءِ
وفؤادى من الملوك وان كا
ن لسانى يُرَى من الشعراء

وقال(٨٥) :

اذا لم تَنُطْ بى ضيعة أو ولاية
فجودك يكسونى وشُغْلُك يسلب

وقال(٨٦) :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم
الى غيوث يديه والشآبيب
الى الذى تهب الدّولاتِ راحتُه
ولا يَمُنُّ على آثار موهوب

وصرح في هذه القصيدة بأن رحلته ليست لجمع المال . فقال يصف فرسه :

تَهوِى بمُنجرِد ليست مذاهبُه
لَلبس ثوب ومأكول ومشروب

وقال في قصيدة أخرى(٨٧) :
وما رغبتى فى عسجد أستفيده
ولكنها فى مَفخر أستجدُّه

ومُنى المتنبى بالفشل فى كل محاولة حاولها لتحقيق أهدافه . وأدرك آخرَ الأمر أنه لم يسلك الطريق الصحيح الى هدفه ، حين ابتغى اليه الوسيلة بالاتصال بذوى السلطان عن طريق مدحهم وتملقهم . وعرف أن السيف وحده كان هو الطريق الصحيح . ولكنه كان يعود فيحدث نفسه فى حسرة قائلا : ان آماله تحتاج الى المال والجاه ، وهو لا يملك المال ولا الجاه . وما أشقى الطمّوح اذا أعوزَته الحيلة ، فكانت همته وآماله أكبر من امكانه .

يقول من قصيدة له بمصر فى كافور(٨٨) :

وأتعَبُ خلقِ الله من زاد هَمُّه
وقصَّر عما تشتهى النفسَ وُجدُه

فلا يَنحلِل فى المجد مالُك كلـه
فينحَلَّ مجـد كان بالمـال عقده

ودبِّره تدبير الذى المجـدُ كَفُّه
اذا حارب الأعداءَ والمالُ زَندُه

فلا مجدَ فى الدنيـا لمن قلَّ مالُه
ولا مال فى الدنيـا لمن قلَّ مجدُه

ويقول بعد رحيله من مصر فى قصيدته(٨٩) :

حتام نحن نسارى الليل فى الظُّلَم
وما سُراه عـلى سـاق ولا قدم

ولا يُحِسُّ بأجفان يُحسُّ بهـا
فقدَ الرقاد غـريب بات لم ينم

وهي قصيدة تقطر حزناً ومرارة .. وقد عاودته فيها آراؤه الثائرة التى رأينـاها فى شـعر شـبابه الشامي .. ففيها يقول :

ما زلتُ أُضحك ابلى كلما نَظَرت
الى مـــن اختضبَت أخفافُهـــا بدم

أُسيرُها بين أصـــنام أشـاهدها
ولا أشــاهد فيهـــا عفـــة الصنم

حتى رجعتُ وأقـــلامى قـــوائلُ لى
المجـدُ للسـيف ، ليس المجـد للقلم

اكتُب بنا أبداً بعـــد الــكتاب به
فانمـــا نحـــن للأســـياف كالخدم

أسَمعتِنى . ودوائي ما أشرتِ بـــه
فانْ غَفَلتُ فدائى قِلَّةُ الفهم

من اقتضى بسوى الهندى حاجتَـه
أجاب كلَّ سـؤال عـــن هَل بلَم

ويختم الشاعر قصيدته الحزينة بقوله :

وقت يضـــيع وعُمر ليت مدته
فى غير أمتـــه من صـــالح الأمم

أتى الزمانَ بنـــوه فى شبيبته
فسرَّهم وأتينـــاه على الهرَم

ما هي هذه الأهــداف الخطيرة التي ظل المتنبي يسعى وراء تحقيقها طوال عمره فذاق فيها السجن وعاش حيــاته مشرداً مهدداً ؟ اننا لا نجد في شعر المتنبي اشارة صريحة لها . فهو يراها أخطر من أن يصرِّح بها كما يقول في قصيدته التي رثى بهــا جدته :

يقولون لي : ما أنت في كل بلدة ؟
وما تبتغي ؟ ما أبتغي جل أن يُسمَى

ولكن شعره ناطق بأنه كان يسعى الى أمر عظيم، تعلَّم من الــكيد المنظم والدسائس التي أحاطت به في كل مكان وترصدت له في كل طريق أن يحرص على كتمانه .

يقول في احدى قصائده الشــامية في مســتهل حياته(٩٠) :

ومن يَـبغ ما أبغي من المجد والعلى
تَساوَ المحَايِيَ عنــده والمَقاتلُ

ألا ليست الحاجاتُ الا نفوسكم
وليس لنا الا السيوف وسائلُ

ويقول ، وقد مر بمكان يُعرف بالفراديس ، فسمع زئير أسد(٩١) :

أجارُكِ يا أُسدَ الفَراديس مُكرَم
فتَسكُنَ نفس ، أم مُهان فمُسلَم ؟
ورائى وقُدّامى عُداة كثيرة
أحاذر من لِص ومنكِ ومنهم
فهل لكِ فى حِلفى على ما أريده
فانى بأسباب المعيشة أعلمُ
اذاً لأتاكِ الرزق من كل وجهة
وأثريت مما تغنمين وأغنمُ

ويقول ، وكأنه يهدد الذين تقرّبَ اليهم بالمدح فلم يعينوه على تحقيق أهدافه(٩٢) :

لله حال أرجّيها وتُخلِفنى
وأقتضى كونَها دهراً ويمطلنى

مدحتُ قوماً وإنْ عشنا نظمتُ لهم
قصائداً من اناث الخيل والحُصُن

ويقول في احدى مدائحه لسيف الدولة(٩٣) :
أُهمُّ بشيء والليالى كأنها
تطاردنى عن كَونِه وأطارِد
وحيد من الخلان فى كل بلدة
اذا عَظُم المطلوبُ قَلَّ المُساعِد

ما هو الشيء الذى يهم به ويسعى اليه ولا تساعده الظروف على تحقيقه ؟ انه ليس مطلباً شخصياً . فالمطالب الشخصية لا تطلب بالسيف ولا تحتاج الى الأعوان ، ولا يحارَب صاحبها بهذا الأسلوب المنظم . واذا كانت سياسية فهل كانت مؤيدة للقرامطة كما ذهب اليه طه حسين وبعض المستشرقين ؟ أم كانت معادية للقرامطة ، تريد أن تنبه الناس الى خطر دعوتهم ، والى أن حقيقتها تخالف ما يظهرون للناس منها ، ولفقرائهم المعذبين على وجه الخصوص ، حين يزعمون لهم

أنهم يريدون أن ينتصفوا للمظلومين المحرومين من المترفين الظالمين ، ويُموّهون عليهم بالآية الشريفة التى اتخذوها شعاراً يكتبونه على أعلامهم البيضاء: « ونُرِيدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفُوا فى الأرض ونجعَلَهم أئمة ونَجعلَهم الوارثين »(٩٤) .

ان الذى يدقق النظر ويطيل التأمل فى حياة المتنبى وفى شعره يستطيع أن يجد شواهد كثيرة على عدائه للقرامطة وللباطنية . فالمتنبى قد عاش حياة قلقة لم يذق فيها طعم الاستقرار الا عند الحمدانيين . وقد أشار ابن الأثير فى مواضع متفرقة من تاريخه الى جهاد الحمدانيين للقرامطة على وجه العموم ، والى جهاد أبى الهيجاء والد سيف الدولة لهم على وجه الخصوص(٩٥) وقد مضى سيف الدولة على آثار أبيه فى مجاهدة القرامطة . ففى سنة ٣٣٧ أغار القرامطة على حمص وأسروا واليها أبا العشائر بن حمدان (ابن عم سيف الدولة) ، فنهض اليهم وأوقع بهم واستنقذ ابن

عمه . وفى ذلك يقول المتنبى ، مشيراً الى جيش القرامطة(٩٦) :

وجَيش اِمام على ناقة
صحيح الاِمامة فى الباطل

ويتهكم بزعيم القرامطة . وكأنه كان يزعم لأتباعه أن الوحي ينزل عليه ، ويموّه عليهم ويخدعهم بما خدعهم به الزعيم القرمطى السابق الملقب بالشيخ ، حين كان يزعم أنه اذا أشار بيده الى الجهة التى فيها محاربوه انهزموا(٩٧) وكأنما كان أتباعه ينخدعون بكلامه ، فيتقدمونه وهو راكب فوق جمله ، وعليه ثياب فضفاضة ذات أكمام واسعة ، كأنهم جماعة النحل الهائج أمام العاسل :

فأقبلن يَنحَزن قُدّامه
نوافر كالنحل والعاسل
واِنى لأَعجَبُ من آمل
قِتالا بكُم على بازل
أقال له الله لا تَلقَهم
بماض على فرس حائل

اذا ما ضَربتَ بــــه هامــــة
براها وغَنَّاك في الــــكاهل ؟(٩٨)

ويشيد المتنبى فى قصــيدة أخــرى بجهاد سيف الدولة وجهاد أبيه فى مناصرة الخلافة العباسية وشد أزرها ضــد القرامطــة الذين كانوا يعملون عــلى تقويضها فيقول(٩٩) :

فأنت حســام الملك والله ضــارب
وأنت لــواء الدين والله عاقــد
وأنت أبو الهيجا بنُ حمدانَ يا ابنه
تَشــابَه مولود كــريم ووالــد
أولئــك أنيــاب الخــلافة كُلِهــا
وســائرُ أملاك البــلاد الزوائــد

ويشيد فى قصيدة أخرى بمناصرة سيف الدولة للخلافة العباسية ، منددًا بدولة البويهيين الشيعية التى يسميها (دولة الكفر)(١٠٠) :

لأمــر أعــدَّته الخــلافةُ للعــدا
وسمَّتهُ دون العــالم الصــارمَ العَضبا

فَمن كان يُرضِي اللؤمَ والكفرَ مُلكُه
فهــذا الذى يُرضِي المــكارمَ والربا

ويتهكم المتنبى فى موضع آخر بالدولة العباسية التى يتبعها سيف الدولة والخاضعة للشيعة البويهيين(١٠١) :

فيا عجبــا من دائــل أنت سيفه
أما يتـــوقى شَفرَتَى ما تقلدا ؟
ومن يجعل الضِرغام للصـيد بازَه
تصيّده الضرغامُ فيمــا تصيّدا

ويشير فى قصيدة أخرى الى جهاد أبى الهيجاء ـ والد سيف الدولة ـ فى حرب القرامطة ، حين كان يتولى حراسة طريق الكوفة للحج سنة ٣١٢هـ فيقول(١٠٢) :

ابنُ المعفّرِ من نجـد فوارسَها
بسيفه ولــه كُوفانُ والحَرَم

ويشير الى غارات القرامطة على أطراف ملك

سيف الدولة فيجعلهم أعداءاً للاسلام كالروم الذين يجاهدهم سواء بسواءِ حين يقول(١٠٣) :

أنت طـول الحياة للروم غاز
فمتى الوعد أن يكون القفول ؟
وسوى الروم خلف ظهرك روم
فعلى أي جانبيك تميل

ويسخر المتنبى من دعوى المهدية والرجعة ، التى يشيعها الباطنية والقرامطة ، لأنها تصرف الناس عن معالجة الفساد بالكفاح فى سبيل الاصلاح، وتعلقهم بالأوهام . فيقول فى احدى قصائده لعضد الدولة فى شيراز(١٠٤) :

فان يكن المهدي من بان هديه
فهذا . والا فالهدى ذا . فما المهدى ؟
يعللنا هـذا الزمان بذا الوعد
ويخدع عما فى يديه من النقد
هل الخير خير ليس بالخير غائب
أم الرشد شيء غائب ليس بالرشد ؟

وذلك كلــه صريح فى عــداء المتنبى للباطنيــة وللقرامطة . فاذا أضفنا اليه ما سبق أن لاحظناه ، من وصفه خصومه الذين يكيدون له بأنهم أدعياء تارة وبأنهم يهود تارة أخرى ، مع ما هو معروف من اتهام الفاطميين بأنهم يهود ادّعوا النسب العلوي ـ وهى تهمة شائعة فى عصرهم ، كما يبدو من المحاضر التى دونتهــا الدولة العباســية(١٠٥) ، ومِن كتب الفــرق ـ واذا أضــفنا اليــه كذلك ما لاحظنــاه من القِيمَ الخلقيــة التى تَعَلَّق بهــا ومجّــدها ودعا اليهــا وأكثر من ترديدها ، وهي قيم تناقض العقيــدة الأساسية فى مذهب الاسماعيليــة بكل فروعها ـ ومنها القرامطة ـ ، تأكد عندنا من ذلك كلــه ما ذهبنــا اليــه من أن المتنبى كان ينــاهض القرامطة ودعاة الباطنية .

والواقع أن الشكوى التى يفيض بها شعر المتنبى اليَق بعدو القرامطة منهــا بالداعيــة القرمطي . فالداعية القرمطى لا يشــكو ولا يتعجل النتائج ، لأن الدعوة كانت تســير على نظام مرســوم بطريق

سرى لا تجهر فيه بالشكوى من قلة النصير ، ولا تعلن فيه العداء للناس ، ولأن دعاة الباطنية ـ ومنهم القرامطة ـ كانوا ينشّئون تنشئة خاصة ، تكسبهم خبرة بطبائع الناس والمجتمعات ، وقدرة على الدخول الى قلوبهم من أقرب الطرق وأحبها اليهم . وكان الكتمان أبرز صفاتهم . وانما الأليق بهذه الثورة أن تكون تعبيراً عن ضيقه بفساد المجتمع والحكام ، الذى مهد الطريق لدعوة القرامطة ومكن لها ، وبعدم استجابة الناس له حين ينبِّههم الى خطر القرامطة والفاطميين فتقعد بهم البلادة والغباء والخوف عن الاستجابة لدعوته ، وحين يجد كثيراً منهم واقعاً تحت سيطرتهم عن رهبة أو غفلة . وحين يقصد الأمراءَ وأصحابَ النفوذ والسلطان فيجدهم مشغولين عن الجهاد وتكاليفه بالترف والشهوات .

ولو كان المتنبى داعية قرمطياً كما ذهب اليه بعض الباحثين لعاش كما يعيش كل دعاة القرامطة متخفياً لا يعرف الناس حقيقة ميوله . ولما واجه

هذا الكيد المنظم فى كل بلد حل به وفى كل طريق سلكه ، وهو كيد لا يصدر الا عن جماعة واسعة الانتشار دقيقة التنظيم . وأعداءُ القرامطة ليس لهم رابطة منظمة . وقد واجه المتنبى دعاية محكمة في التشنيع بسيرته وبشعره على السواء ، فوضعوا قصصاً تصور بخله ودناءة نفسه . ولم يتورع بعض هذه القصص عن رميه بالغلمان ، مما يتعارض تعارضاً صارخاً مع حياته وشعره . وزعموا أنه ادعى النبوة ، وصنعوا كلاماً ركيكاً زعموا أنه عارض به القرآن . ولو أراد المتنبى معارضته حقاً فلقد كان قادراً على كلام أعلى طبقة وأبلغ عبارة . وزعموا أنه كان لا يصلى ولا يصوم ولا يقرأ القرآن . وأغرى به المهلبيُّ وزيرُ مُعِز الدولة البويهى جماعة من الشعراء الساقطين سلوكاً وفناً ينهشونه ويزعمون أن أباه سقاء وينالون منه(١٠٦) . وأغرى به الحاتميُّ ، فقصده في مجلسه بين تلاميذه الذين يأخذون عنه شعره ، وتطاول عليه وحقره ، فى القصة المشهورة التى

تصور الظلم والتحامل ، والتعسف فى تتبع الأخطاء ، وانكارِ المحاسن وادعاءِ أنها مسروقة(١٠٧) . ووضعوا عدداً ضخماً من الكتب في سرقاته وفي تتبع مساوىء شعره(١٠٨) . وذلك كله بالاضافة الى ما كان يحاك له من دسائس، وما يوضع في طريقه من العقبات ، وما يهدد حياته في أسفاره من ترصُّد ومطاردة .

وهذا الصراع الذى خاضه المتنبى طول حياته ، والذى انتهى بمقتله ، يذكرنا بردِّ الشريف الرضى على أبيه حين عاتبه فى الشعر المنسوب اليه ، والذى يمدح به الفاطميين . فلما أنكره الرضى طلب اليه أبوه أن يعلن هذا الانكار بين الناس ، فاعتذر من ذلك قائلا : (.. ولكنى أخاف من الديلم وأخاف من المصري ومن الدعاة في البلاد)(١٠٩) . لقد أصبح الدعاة الذين بثهم الفاطميون فى كل مكان ، والدَّيلمُ الذين يؤيدون هذا المذهب ، قوة تبعث الرعب فى النفوس . وقد ازداد خطرهم من بعد

ذلك حين استولى الحسن الصباح على قلعة أَلَمُوت (جنوبى بحر قزوين) سنة ٤٨٣ هـ .

★ ★ ★

ولكن قصيدة واحدة فى ديوان المتنبى من قصائد صباه فى الكوفة تعارض هذه الصورة التى استخرجناها من سائر شعره ، وتدل دلالة صريحة على أن الشاعر من غلاة الشيعة الباطنيين الذين يؤمنون بالحلول . ونعنى بها قصيدته(١١٠) :

كُفِّى ، أرانى ــ ويكِ ــ لومَكِ أَلْوَمَا
هَمٌّ أقام على فؤاد أنجمَا

وهى قصيدة أخفى الشاعر اسم الممدوح فيها ، واكتفى الديوان فى تقديمها بقوله : (وقال وهو فى المكتب يمدح انساناً ، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه) .

يقول المتنبى فى هذه القصيدة لممدوحه المجهول:

يا أيها الملك المُصَفَّى جوهراً
من ذات ذى الملكوت أسمَى من سَما

نور تَظاهرَ فيكَ لا هُوتيُّه
فتكادُ تعلم علمَ ما لن يُعلَما

أنا مُبصِر وأظن أنى نائم
من كان يحلم بالاله فأحلما

كَبُرَ العِيانُ علىَّ حتى انه
صار اليقين من العِيان توهُّما

هذه الأبيات صريحة فى دلالتها على أن صاحبها يؤمن بما يذهب اليه الباطنية الاسماعيلية فى أئمتهم . وهى تذكرنا بوصف داعى الدعاة مقابلته الأولى للمستنصر الفاطمي ، الذى ذكرناه من قبل . والممدوح بهذه القصيدة غير معروف ، لكن من المحتمل أن يكون أحد دعاة القرامطة فى الكوفة . ولعله (أبو الفضل) الذى ورد ذكره فى كتاب أبى القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى الذى ألفه لبهاء الدولة بن بويه (ايضاح المشكل فى شعر المتنبى) ، حيث قال ان أبا الطيب (كان فى صغره وقع الى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة . فهوَّسه وأضله كما ضل)(١١١) وهذه

القصيدة هى نقطة البدء التى بَنَى عليها كلامَهم كلٌ من ذهب الى تقرمط المتنبى من الباحثين(١١٢) .

والقصيدة على كل حال لا شك فى دلالتها . وليس لنا بد من أن نقول ان المتنبى كان واقعاً تحت سيطرة القرامطة ـ الفكرية على الأقل ـ حين كتبها . ويدعونا هذا الى أن نتساءل : هل كان هو وحده واقعاً تحت سيطرة القرامطة ، أم كانت أسرته تشاركه فى اعتناق هذا المذهب ؟ اننا لا نعرف شيئاً عن أسرته ولا نعرف أباه ولا نعرف أمه . وقد تحاشى المتنبى ذكرهما فى كل شعره رغم ما ووجه به من تحدِّى خصومه . ولا نعرف عن جدته الا القصيدة التى رثاها بها ، وما رواه الخطيب البغدادى من أنها كانت همدانية صحيحة النسب ، وكانت من صالحات النساء الكوفيات(١١٣) .

وما دام التاريخ قد سكت عن هذه المسئلة ، وما دام شعر المتنبى يقف منها موقف الصمت ،

فليس لنا بد من أن نملأ هذه الفجوة فى قصة حياة شاعرنا بالفروض . فهل نستطيع أن نفترض ــ مع ما نعرفه من تسلط القرامطة على الكوفة ، واتخاذهم معسكراً في البادية القريبة منها(١١٤) ــ أن القرامطة قد نجحوا فى استدراج والد المتنبى ووالدته الفقيرين، الى مذهبهم الذي كان يستدرج أمثالَهما من الفقراء بما يعدهم من عدل ورخاء في ظل المهدى المنتظر ، فرحلا مع ابنهم الصغير الى أحد معسكراتهم ؟ وشاركوا فى غارات القرامطة على الكوفة ؟ وأن الصبى الصغير حين شب وعقل قد اطلع على مخازيهم فى هذا المعسكر بعد أن عاش فيه سنين ، فهرب الى جدته التى كانت تعيش فى حزن يأكل قلبها على مصير ابنتها . وامتلأت نفس المتنبى بالسخط على المجتمع الذى عاش فيه ، بكل ما فيه من فساد وظلم . سخط على الحياة اللاهية المترفة التى يحياها أصحاب الجاه والسلطان ، والتى يقابلها فى الناحية الأخرى حرمان شديد وفقر مدقع . وسخط على الانحلال والفساد الذى يغرق فيه الأغنياء المترفون . وسخط على الانحلال

والفساد الذى يُدفَع اليه الفقراء المُعدِمون .
وسخط على استخزاء الناس وضعف هممهم وتفاهتهم
وانشغالهم بشهواتهم . واعتبر ذلك الفساد بكل
مظاهره وألوانه مسئولا عن تسلل المذاهب الهدامة
التى تختفى خلف شعارات براقة تعمل من ورائها
عناصرُ غريبة على المسلمين وعلى العرب ، تريد أن
تضرب الاسلام والعرب فى وقت واحد . كانت
نفس المتنبى تفيض بهذا السخط ، وكانت هذه الآراء
تدور فى رأسه ، وتُنضِج الحقدَ الذي يملأ صدره،
والسخط الذى يغلى فى أعماقه . وكانت جدته
الحازمة المنكوبة تحيط برعايتها وارشادها ذلك
الصبى الصغير الذى أصبح كلَّ ما بقى لها فى
الحياة . ولكن المتنبى لم يطق حياة الذل والعار .
ولم يستطع أن يواجه المجتمع الكوفى الصغير ، الذى
يتساءل فى كثير من الدهشة التى يخالطها الاشفاق ،
والتى لا تخلو فى بعض الأحيان من الغمز واللمز ،
عن اختفاء والد المتنبى ووالدته . رحل المتنبى الى
الشام يحمل بين جنبيه كل ما أنضجته التجربة
القاسية من حقد ومن سخط . ويحمل فى رأسه كل

ما وَعَى من حقائق فى مجتمعه وفى مجتمع القرامطة وما سمع من جدته . ولم يقدِّر في فورة شبابه واندفاعه قدرته وامكانه . وظن أن الأمر يسير ، وأنه يستطيع أن يفعل شيئاً يغيِّر به الوضع القائم . ولِمَ لا يفعل وباب المجد فى عصره مفتوح لكل طموح ولكل مغامر ، من جنود الترك الذين كانوا يثبون من منازل الخدم الى مقاعد الرياسة ، ومن مشايخ القبائل وأصحاب الدعاوَى والدعوات الذين كانوا يثبون فجأة وفى سهولة ويسر الى مراكز الامارة ، ولا يلبثون أن يستقلوا عن الخلافة وأن يصبحوا ملوكاً فى اماراتهم المستقلة ؟

بدأ المتنبى يتصل فى الشام بمشايخ القبائل وبالأمراء ، يتقرب اليهم بشعره مادحاً ، ويحاول أن ينبههم الى خطر القرامطة والدعوة الباطنية ، والى فساد الأوضاع الاجتماعية القائمة ، وأن يضمهم فى جبهة واحدة تقف في وجه هذا الخطر الذى يزحف عليهم من الشرق بالقرامطة ومن الغرب بالفاطميين. ولكن دعاة القرامطة والفاطميين وعملاءهم كانوا

يتعقبون الفتى الشاب ويرصدونه ، ويحيطونه بمكايدهم ودسائسهم ، التي استمرت الى نهاية عمره وانتهت بمقتله .

هذا المعسكر القرمطي الذى نفترض هرب المتنبي اليه مع والديه وهو بعدُ صبيٌّ صغير ، يذكّرنا بما رواه الطبري وابن الأثير فى حوادث سنة ٢٩٠ هـ من خبر المرأة العراقية التي غاب عنها ولدُها فخرجت تَنشُده حتى وقعت عليه في معسكر القرامطة ، وما وصفَته من حياة الشيوع الجنسى الذى كان هؤلاء القرامطة يعيشون فيه ، وما كان من ضرب ابنها لها بالسيف حين هربت من هذا المعسكر(١١٥) .

وهذا الفرض الذى ذهبنا اليه يمكن أن يفسر كثيراً من الغموض فى حياة الشاعر وفى شعره . فهو يفسر لنا صمته عن ذكر أبيه وأمه . ويفسر لنا ما رواه الخطيب البغدادي وابن الأنباري والبديعى من أن الشاعر قد خرج الى البادية فعاش

مع الأعـــراب ســـنين ، ثم عاد الى الــكوفة بــدوياً قُحاً(١١٦) . ويفسر لنا البيت الذي جاء في قصيدته الدالية التى وجهها الى اسحق بن كيغلغ من سجنه ، وهو قوله :

وقيــل عــدوتُ عــلى العــالميــ
ــن بــين ولادى وبــين القعــود

فالتهمة التى أثارها خصـــومه وقتذاك فيما يبدو هي أنه اشـــترك مع أسرته وهو بعدُ صبي صغير ـ فى غارة أو عدوان على جماعة المسلمين .

ويفسر لنا ذلك الفرضُ كذلك ما جاء فى تقديم القصيدة الدالية السابقة من أن الشاعر قد أسقط بعض شعره ، وكانت هذه القصيدة مما أسقطه من شعر الصبا(١١٧) . ويفسر لنا أيضاً اشارته في احدى قصائده عند سيف الدولة الى جماعة عاش بينهم فى صباه ، بين (العُذَيب) و (بارق) و (الثَّوِية) ـ وهى مواضع فى ظاهر الــكوفة ـ ووصف حياتهم بالخشـــونة . فهم يفترشـــون الأرض ، ويذبحـــون

ما يقتنصون من وحش الصحراء بما بقي من سيوفهم التي كسروها في رءوس من قتلوا من الناس(١١٨) :

تذكرتُ ما بين (العُذَيب) و (بارق)
مَجَرَّ عوالينا ومَجرَى السوابق

وصحبةَ قوم يذبحون قَنيصهم
بفضلة ما قد كَسَّروا في المَفارق

وليلا توسَّدنا (الثَّوِيّة) تحته
كأن ثراها عَنبر في المَفارق

ويفسر لنا هذا الفرض كذلك بعض ما جاء في القصيدة التي رثى بها جدته . ففي هذه القصيدة ظواهرُ كثيرة تلفت نظر الدارس(١١٩) :

فالمتنبي قد جاء لزيارة جدته بعد غيبة طويلة في الشام . ولم يشأ أن يدخل الكوفة ، وكتب الى جدته أن توافيه في بغداد . فلما باغتَها كتابُه بعد يأس من لقائه حُمَّت وقتلتها المفاجأة لوقتها :

أتاها كتابي بعد يأس وتَرحة
فماتت سروراً بي فمتّ بها غمَّا

والمتنبى يشير الى أنه قد ترك جدته مطالباً بثأر لها هو فى الوقت نفسه ثأر له ، ففاته الثأر وفاتته جدته :

طلبتُ لهـــا ثأراً ففــاتَت وفاتنى
وقد رضِيَت بى لو رضيتُ بهما قسما
فأصـــبحتُ أستسـقى الغمـامَ لقـبرها
وقد كنت أستسقى الوَغىَ والقنا الصُّمَّا
هبينى أخذتُ الثـأر فيـك من العِـدَا
فكيف بأخـذ الثـأر فيـكِ من الحُمَّى

ويشير المتنبى الى ما تثيره كثرة أسفاره وتنقله بين البلاد من تساؤل عن حقيقـة أهدافه . ويقول ان أهدافه أخطر من أن يصرح بها :

يقـــولون لى ما أنت فى كل بلـــدة ؟
وما تبتغى ؟ ما أبتغى جَلَّ أن يُسمَى

ويقرر المتنبى ـ فى قصيدة رثاء ، يخيم عليهـا

حزن عميق ــ أنه سيمضى فيما بدأه ، حتى ينتقم لها ويأخذ بثأرها :

لئن لَذَّ يومُ الشامتين بيومها
لقد وَلَدَتْ منى لآنافهم رغما

... ولكننى مستنصر بذُبابِه
ومرتكب فى كل حال به الغَشما

وجاعلُه يوم اللقاء تحيتى
والا فلستُ السيدَ البطل القَرما

والمتنبى فى هذه القصيدة يُضفِى على جدته كل ما فقده من صفات الأبوة والأمومة معاً . ففيها حنان الأم حين يقول :

لَكِ اللهُ من مفجوعة بحبيبها
قتيلةِ شوق غيرِ مُلحِقِها وَصما

وفيها حزم الأب وقوة ادراكه وقدرته على التوجيه حين يقول :

فوا أسفَا أن لا أُكِبَّ مقبِّلا
لرأسك والصدر اللذَى مُلِئا حزما

هذه الفوضى الخلقية والاباحة الجنسية التى اطلع عليها المتنبى فى معسكر القرامطة هى التى تركت فى نفسه ذلك الأثر العميق والكراهية الشديدة للخمر وللنساء ، التى تبدو واضحة في سيرته وفى شعره . وهو فى الوقت نفسه يعلل لنا قصيدتين بالغتين فى الافحاش ، وقف أمامهما الرواة والدارسون حائرين ، وهما قصيدته فى اسحق بن كَيغَلَغ في طرابلس ، وقصيدته في ضَبَّة بن يزيد العيني الأسدي(١٢٠) . والافحاش فيهما صريح عار ، يقوم على اتهام كل من المهجوين في عرضه وفي عرض أمه وعرض زوجته . فهل كان ذلك تعريضاً بقرمطية المهجو ؟ من الثابت أن أحد المهجوَّين ـ وهو ضبة ـ كان قَرمطياً . فالذين أغاروا على الكوفة ، حين كان المتنبى فيها بعد عودته من مصر سنة ٣٥٣هـ كانوا من قرامطة بنى كلاب ، أخوال ضبة(١٢١) . والذين خرجوا مع ضبة ، وترصدوا المتنبى وقتلوه فى عودته من شيراز الى بغداد كانوا من قرامطة بنى كلاب أيضاً(١٢٢) .

ان هذا الافحاش المكشوف فى الهجاء يذكرنا بشعر أبي القاسم الواساني في منَشَّا اليهودي ، الذي كان والياً للعزيز الفاطمي في الشام(١٢٣) . وربما كان شيوع مذهب القرامطة فى الشام وفى العراق فى القرن الرابع الهجري هو المسئول عن ذلك السيل الفاحش من الهجاء المكشوف الذى يملأ كتاب (يتيمة الدهر) .

وبعد ، فقد طال الحديث وامتد ولم نبلغ ما نريد . فلعل باحثاً يتفرغ لتتبع صلات المتنبى بالقبائل والأماكن التى ذكرها فى شعره من ناحية ، ولموقف هذه القبائل والأماكن من دعوة القرامطة والاسماعيلية الفاطمية من ناحية أخرى . وهو عمل شاق طويل ، ولكنه مفيد . وقد يؤكد تأكيداً قاطعاً ما ذهبنا اليه من فرض .

وأعود فى آخر الأمر فأختتم هذا الحديث بالكلمة العميقة المعنى البالغة الدلالة فى تصوير تواضع

العلماء وبراءتهم من الغرور ، واقرارهم بالقصور .
وهي الكلمة التي تعود علماؤنا أن يختموا بها كلّ
رأي يذهبون اليه حين يقولون : « والله أعلم » ..

■■■

الحواشي المشار الى أرقامها في النص

(١) طائفة الاسماعيلية ص ٥٤ـ٥٧ ، ١٧٨ .
(٢) كشف أسرار الباطنية ص ١١ ، ٤٢ـ٤٤ .
(٣) فرق الشيعة ص٧٢ .
(٤) مختصر الفرق بين الفرق ١٤٢ـ١٤٤ .
(٥) الحاكم بأمر الله ص٥١ ـ كشف أسرار الباطنية ص١٧ ـ ـ ابن الأثير ٦ : ١٢٥ من حوادث سنة ٢٩٤هـ . وقد اختلفت الآراء في دينه . فمن قائل انه مجوسي . ومن قائل انه يهودي ومن قائل انه نصراني ديصاني . وأية ما كان الأمر فجمهور المؤرخين متفقون على أنه كان يكره الاسلام والعرب ، ويعمل على هدم دينهم ودولتهم . (راجع « الحاكم بأمر الله » ص٤٨ـ٥٣) .

(٦) طائفة الاسماعيلية ص١٤ .

(٧) راجع في ابن الأثير ج ٦ : ظهور أبي سعيد الجنابى في البحرين سنة ٢٨٦هـ ، وظهور ذكرويه بن مهرويه في الشام سنة ٢٨٩هـ . ومن المؤرخين من يرجع نشاة الدعوة الباطنية الى أيام المأمون ويجعل ثورة بابك (الخرّمى) من ثورات الباطنية والقرامطة . وقد كان الأفشين القائد العباسى المشهور يخفي ولاءه لهم ، ثم قتله المعتصم حين اكتشف حقيقته ـ التبصير في الدين ص٨٤ ، مختصر الفرق بين الفرق ص١٨٣ .

(٨) طائفة الاسماعيلية ص ١٤ـ٢٢ .

(٩) صحح نسبهم ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي . وابن الأثير ـ مع تصحيحه نسبهم ـ يروى أخباراً غاية في البشاعة من أفعال القرامطة ، مع ما هو معروف من أنهم فرع من الدعوة الفاطمية . وابن الأثير لا يعتمد في تصحيح نسب الفاطميين الا على قوله « وسألت أنا جماعة من العلويين في نسبه ـ يقصد صاحب مصر ـ فلم يرتابوا في صحته » ولكنه لا يورد أسماء هؤلاء الذين سالهم . بينما يذكر أسماء الأشراف والعلماء الذين وقعوا المحضر العباسى القادح في نسب الفاطميين . كما ينقل عن الأمير عبد العزيز صاحب تاريخ افريقية والمغرب أن نسبهم معروف في اليهودية . ولا يعتمد ابن الأثير ـ عدا ما ذكره من شهادة بعض العلويين الذين لم يذكر أسماءهم ـ الا على شعر منسوب للشريف الرضى يقول فيه :

ما مقامي على الهــــوان وعندى — مقـــــول صـــــارم وأنف حمي
ألبس الـــذل في بـــلاد الأعادى — وبمصـــــر الخليفـــة العلوي
من أبــــوه أبي ومـــولاه مولا — ي اذا ضامنى البعيـــد القصي

مع أن ابن الأثير نفسه قد ذكر بعد ذلك في قصة هذه الأبيات أن الشريف الرضي أنكر نسبة الشعر اليه حين عاتبه أبوه فيه . ولكنه امتنع عن تكذيبه عند الخليفة خوفاً من بطش (الديلم والمصري والدعاة في البلاد) ـ ابن‌الأثير ٦ : ١٢٥ـ١٢٦ حوادث سنة ٢٩٦هـ . أما ابن خلدون فهو ـ مع اقراره بصحة نسبهم ـ يقر بكفرهم واباحتهم ويقول ان صحة نسبهم لا تغنى عنهم من الله شيئاً في كفرهم ـ الحاكم بأمر الله ص٥٤ نقلا عن مقدمة ابن خلدون ـ أما المقريزى فهو في رأيه ناقل عن شيخه وأستاذه ابن خلدون ومتاثر به . ومع ذلك فهو الذي نقل في خططه عن مراتب‌الدعوة الفاطمية التسع ما لا يشك‌معه في أن دعوتهم تنتهي بالسالك فيها الى الكفر ، باسقاط كل التكاليف بعد تاولها ، وباعتقاد أن الفلاسفة أعلى طبقة من الأنبياء ـ الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ـ٢٣٥ .

(١٠) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٢٧ـ٢٣٥ . وأقدم نص انتهى الينا فى انكار نسب الفاطميين ما نقله ابن النديم فى كتاب (الفهرست الذى ألفه سنة ٣٧٧هـ رواية عن أبى عبد الله محمد بن علي بن رزّام الكوفي فى كتاب له يرد فيه على الاسماعيلية ، كتبه فى خلافة العزيز بالله (٣٦٥ـ٣٨٦هـ) ويتفق مع ابن رزّام فى رد نسب الفاطميين وفى وصفهم بالحاد والاباحة ـ مع خلاف فى التفصيل ـ عبد القاهر البغدادي (المتوفي سنة ٤٢٩هـ) فى حديثه عن دعوى الباطنية من كتابه « الفرق بين الفرق » . وهناك روايات صريحة فى أن أصل الفاطميين مجوسى أو يهودى . منها رواية القاضى أبى بكر الباقلاني (المتوفي سنة ٤٠٣هـ) وهو ينسبهم وينسب القرامطة الى المجوسية . ومنها رواية ابن تغرى بردى فى كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » عن القاضى عبد الجبار البصري الذى ينسبهم الى اليهودية . ومنها رواية ابن الأثير والمقريزي عن الأمير عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز ابن باديس صاحب « تاريخ افريقية والمغرب » وهو ينسبهم الى اليهودية أيضاً ، ويصفهم بالزندقة والالحاد والاباحة ، وبانهم أعداء الاسلام الذين أرادوا افساده بالتاويل والأحاديث الكاذبة . وينكر ابن حزم نسبهم الى آل البيت ويصفه بانه (كذب فاحش ودعوى مفتضحة) لأن محمد بن اسماعيل ابن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين . ويوافقه فى ذلك ابن خلكان . وأكثر الروايات المصرية المتاخرة تنكر نسبهم وفى مقدمتها النويرى (المتوفي سنة ٧٣٢هـ) وابن حجر (المتوفي سنة ٩٧٣هـ) . بينما تلزم التواريخ المصرية

في العهد الفاطمي الصمت ازاء هذه المسئلة . وقد جمع محمد عبد الله عنان هذه الأقوال في كتابه « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » في فصل طويل لخص فيه أقوالهم عنوانه « نسب الفاطميين بين المنكرين والمؤيدين » .

(١١) فرق الشيعة ص ٧٢ ـ الحاكم بأمر الله ص٢٨٨ نقلا عن أحمد بن محمد النيسابوري أحد دعاة الاسماعيلية .

(١٢) تاريخ الدولة الفاطمية ٣٨٥ وما بعدها ـ مختصر الفرق بين الفرق ١٧١ ـ التبصير في الدين ٨٣ . ومن المهم أن نذكر أن حصن القرامطة الذى الذى اتخذه حماد قرمط كان فى قرية من قرى الكوفة ، لأن شاعرنا الذى نتحدث عنه قد ولد فى الكوفة بعد ذلك بنحو ربع قرن سنة ٣٠٣هـ .

(١٣) تاريخ الدولة الفاطمية سنة ٣٨٨ .

(١٤) طائفة الاسماعيلية ٢٥ .

(١٥) طائفة الاسماعيلية ٢٩ .

(١٦) تاريخ الدولة الفاطمية ٣٩٦هـ .

(١٧) بل لقد كان الامام مبالغة منه في التستر يسمى الدعاة باسمه ويلقبهم بلقبه . والى هذه المبالغة فى التستر يرجع خروج القرامطة عن طاعته . فقد استطاعوا أن يعرفوا اسم الامام . وقابلهم صاحب هذا الاسم وبارك حركتهم . فلما عادوا اليه مرة اخرى وجدوا شخصاً آخر يحمل الاسم نفسه . فشك زعماء القرامطة فى الامام وفى الدعوة نفسها . وتكررت القصة نفسها مع أبى عبد الله الشيعي داعية الفاطميين الذى أسس دولتهم فى المغرب . فهم بالخروج عليهم حين رأى أن الامام الذى ظهر فى المغرب غير الامام الذى قابله من قبل فى (سلمية) ودعا اليه . وكاد ينجح فى حركته لو لم يبادر عبد الله المهدى الى قتله وقتل أخيه أبى العباس ـ طائفة الاسماعيلية ص ٢٥ـ٢٦ ، ١٥ .

(١٨) فرق الشيعة ص ٧٦ .

(١٩) الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ عند كلامه عن وصف الدعوة وترتيبها .

(٢٠) طائفة الاسماعيلية ١٣٣ ـ ١٣٥ ـ ديوان المؤيد فى الدين ص ٥٤ ـ التبصير فى الدين ٨٦ـ٨٧ .

(٢١) طائفة الاسماعيلية ص ١٤٠-١٤٢ .

(٢٢) راجع نظام الدعوة ودرجاتها ، ونص العهد الذى يؤخذ على الداخل فى خطط المقريزى (مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤هـ) ج ٢ ص ٢٢٧-٢٣٥ .

(٢٣) الحاكم بأمر الله ص ٢٦٦ .

(٢٤) طائفة الاسماعيلية ١٦١ .

(٢٥) بل ان من غلاتهم من أمر أتباعه بطرح جميع التكاليف الدينية ، بزعم أن الامام هو المسئول الأول عن أتباعه ، وهو الذى يتحمل بدلهم الحساب ما داموا يطيعونه ويعتقدون امامته - طائفة الاسماعيلية ص ٨١ .

(٢٦) طائفة الاسماعيلية ص١٥٦-١٥٧ - ديوان المؤيد فى الدين ص ٦٩-٧١ ، ٨١-٨٩ .

(٢٧) طائفة الاسماعيلية ص١٦٤ - ديوان المؤيد ص٨٨-٨٩ .

(٢٨) طائفة الاسماعيلية ص١٥٧-١٥٨ - ديوان المؤيد ص٩٤-٩٦ - الحاكم بأمر الله ص٢٧١ - وراجع نظرية المثل والممثول فى ديوان المؤيد ١٠٦-١٠٨ وراجع الخطط للمقريزي ٢ : ٣٣٢ فى كلامه عن الدعوة الثانية وما بعده .

(٢٩) انتهى كلام دوزى ملخصاً . نقلا عن « الحاكم بأمر الله » ص٢٨٥ .

(٣٠) وقد ظل فى حيازتهم اثنتين وعشرين سنة قبل أن يردوه فى سنة ٣٣٩هـ - راجع ابن الأثير فى حوادث هذا العام ٦ : ٣٣٥ .

(٣١) وفى تاريخ أبى الفداء « المختصر فى أخبار البشر » تفصيل أكثر لفظائعهم فى هذا اليوم .

(٣٢) طائفة الاسماعيلية ص٩٢ وما بعدها - ابن الأثير ٦ : ١٧٧ حوادث سنة ٣١٢هـ فى مساعدة ابن الفرات وزير المعتضد للقرامطة ، ٦ : ١٩٤ حوادث سنة ٣١٦هـ فى اظهار القرامطة أنفسهم بعد غارات أبى طاهر علي السواد .

(٣٣) تراجع أمثلة لغارات أبى طاهر القرمطي على الحجاج فى ابن الأثير سنة ٣١٢ ، ٣٢٣هـ ٦ : ١٧٧ ، ٢٤٩ . ومثال آخر فى غارة ذكرويه عليهم

سنة ٢٩٤ـ٦ : ١١٥ . وتراجع أمثلة فى غارات القرامطة على المدن فى المرجع السابق : غارتهم على الكوفة سنة ٢٩٣هـ (٦ : ١١٤) ، سنة ٣١٥هـ (٦ : ١٨٦) ، سنة ٣٢٥ (٦ : ٢٥٩)، وعلى بلاد الجزيرة سنة ٣١٦ هـ (٦ : ١٩١) ، وعلى دمشق سنة ٢٩٠هـ(٦ : ١٠٤) ، وعلى مدن الشام سنة٢٩٣ (٦ : ١١٣) ، وعلى المدن والقرى فى البحرين سنة ٢٨٧هـ (٦ : ٩٤) .

ويراجع فى اباحتهم الفروج واتيان الذكران وترك الصلاة والصيام وغيرها من العبادات مختصر الفرق بين الفرق ص١٧٥ ، وتاريخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٢هـ عند كلامه عن مذهب الشلمغانى الذى أحدث مذهباً غالياً فى التشيع (٦ : ٢٤١ـ٢٤٢) ، وسنة ٣٠١ عند كلامه عن قتل أبى سعيد الجنابي حين راود غلامه عن نفسه فى الحمام (٦ : ١٤٧) . وراجع قصة المرأة التى وقعت فى معسكر القرامطة حين كانت تبحث عن ولدها الذى استغووه ، فى حوادث سنة ٢٩٠ (٦ : ١٠٥) . وراجع كذلك ما رواه محمد بن مالك الحمادى اليمانى مما عاينه بنفسه من فضائحهم فى كتابه (كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة) ولا سيما ص ١١ـ١٦ . وراجع كذلك النوبختى فى كتابه (فرق الشيعة) ص٧٤ ، وفضائح الباطنية للغزالى .

(٣٤) تاريخ الدولة الفاطمية ص٢١٠ .

(٣٥) الحاكم بأمر الله ص٨١ .

(٣٦) الحاكم بأمر الله ص٨٦ . وراجع أمثلة فى كتاب (تاريخ الدولة الفاطمية) ص٢٠٢ـ٢١٥ . وراجع أمثلة لتشددهم مع أهل السنة من المسلمين فى ص٢١٩ . وراجع كتاب (الحاكم بأمر الله) ص٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ .

(٣٧) راجع فى تطور دعوتهم وتلونها كتاب (طائفة الاسماعيلية) ص١٤٧ـ١٥١ . وراجع فى استعمالهم أبجدية خاصة (ديوان المؤيد فى الدين) ص ١٣١ .

(٣٨) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة « المتنبى » .

(٣٩) ذكرى أبى الطيب ص٤٢ .

(٤٠) ذكرى أبى الطيب ص ٥٢ـ٦٠ ، ٢٤٢ـ٢٤٣ .

(٤١) ديوان المؤيد فى الدين ص٣٧ .

(٤٢) الديوان ـ نشر عزام : ص٢٠٩ .

(٤٣) الديوان ـ نشر عزام : ص٤٧٥ .

(٤٤) الديوان ص ١٧٠ .

(٤٥) الديوان ص ٤٧٨ .

(٤٦) وهنا نجد الكتاب مصدراً للثقافة عند المتنبى . ومصدر الثقافة والمعرفة عند القرمطى هو الامام وما يسمونه علم الباطن وهو عندهم علم الحقيقة .

(٤٧) الديوان ص ٥١٩ .

(٤٨) الديوان ص ٢٠٩ ، ٢ وقد جاء في القصيدة الأولى :

كذا الفاطميون الندا في أكفهم أعز أمحاء من خطوط الرواجب

وقد فهم بعض الباحثين من هذا البيت أن المتنبى يذكر الفاطميين أصحاب الدولة المعروفة في المغرب ومصر . والواقع أن المتنبى لم يقصد من كلمة (الفاطميين) الا العلويين . وقد عرض المتنبى بالفاطميين في أكثر من موضع في شعره .

(٤٩) الديوان ص ٨٤ .

(٥٠) بحيرة طبرية .

(٥١) الديوان ص ١٩٥ .

(٥٢) الديوان ص١٩١ . ولم يسم الديوان المقصود بهذا الشعر . ولكنه أشار الى أن المقصود هم بعض العلويين من ولد العباس في طبرية . وأكثر الأعلام الواردة في هذه الفترة التى سبقت اتصال المتنبى بسيف الدولة مجهول . وأياً ما كان المقصود بالأبيات فهى فى الوقت نفسه صالحة لأن تكون فى الفاطميين ، فهم يدعون الانتساب لمحمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . والتاريخ لا يعرف لمحمد هذا نسلا .

(٥٣) الديوان ص ٢٠٩ .

(٥٤) الديوان ص ١٢٨ .

(٥٥) القتد خشب الرحل . الغرير فحل كريم تنسب له الابل . الجلال العظيم .

(٥٦) الديوان ص ١٥٣ .

(٥٧) الديوان ص ١٥٥ .

(٥٨) السبروت الأرض التى لا نبت فيها .

(٥٩) مكن الضب بيضه .

(٦٠) الديوان ص ٤٥٦ .

(٦١) الديوان ص٥٤٧ . وراجع كذلك قصيدته الميمية ص٥١٠ . وراجع في وصف الرحلة ص٤٨٨ـ٤٩٦ .

(٦٢) جعل طه حسين هذا الشعر الثائر مظهراً لتأثر الشاعر بمذهب القرامطة .

(٦٣) الديوان ص ٣ .

(٦٤) الديوان ص ٢٨ .

(٦٥) الديوان ص ١٤٩ . جرش فى جنوب شرقى طبرية ، وفى شمال عَمَّان .

(٦٦) ديوان المتنبى ص ١٧٤ .

(٦٧) الطمرة الفرس الوثابة . الحيزوم الصدر أو الخصر . الغمر الحقد .

(٦٨) ديوان المتنبى ص ٨٤ .

(٦٩) الديوان ص ٩٢ .

(٧٠) الثمام نبت ضعيف .

(٧١) الديوان ص ٤١٧ .

(٧٢) الديوان ص ٤٢٧ .

(٧٣) المتنبى لمحمود شاكر ص ٧٨ـ١١٥ ، ٢ : ١٨٦ـ١٩٥ .

(٧٤) ذكرى أبي الطيب ص ٥٢ـ٦٠ . وفي تقدير عزام أن رواية الخطيب البغدادي كانت أصلاً لمعظم الروايات التى رويت فى ادعاء المتنبى النبوة .

(٧٥) مع المتنبى ص ٩٧ـ٩٩ .

(٧٦) الديوان ص ١٣٧ ، ١٥٣ ، ٦٧ وذلك قوله :

وأنهَ المُشيرَ عليك فيَّ بضَلَّة ... فالحُـــرُّ ممتَحَن بأولاد الزِنا
واذا الفتى طرح الكلام مُعرِّضاً ... في مجلس أخذَ الكلام اللّذَ عنيَ
... أمسى الذى أمسى بربك كافراً ... من غـــيرنا معنا بفضلك مؤمناً

وقوله : (ص١٥٣) :

فيا ابن كَرَوَّس يانصفَ أعمى ... وأن تغضب فيا نصف البصـــير
تعادينـــا لأنا غـــير لُـــكن ... وتبغضنا لأنا غـــير عـــور

وقوله على لسان التنوخيين في ابن عم لهم مات ، زعم اليهـودي أنهـم شمتوا فيه : (ص٦٧) :

رثى ابنَ أبينا غيرُ ذى رحم لنا ... فباعدنا عنه ونحـــــن الأقارب
وعرَّضَ أنا : شامتون بمـوته ... والا فـزارت عارضَية القواضب
أليس عجيباً أنَّ بينَ بَنِي أب ... لنجلِ يهوديَ تَدِبُّ العقــارب

(٧٧) الديوان ص ١٣ . ولنذكر أن (نحلة) كانت قرية لبنى كلب . وأن بنى كلب من القبائل التى استغواها القرامطة ـ ابن الأثير ٦ : ١١٣ـ١١٤ حوادث سنة ٢٩٣ .

(٧٨) لأمة فاضة درع واسعة فضفاضة . أضاة براقة كالغدير . دلاص لينة ملساء .

(٧٩) الديوان ص ٥٥٢ .

(٨٠) الضمير الأول لصاحبته ، والثاني للخمر .

(٨١) عانة قطيع من حمر الوحش . مقزعة متفرقة .

(٨٢) الديوان ص ١٥٣ .

(٨٣) الديوان ص٤٣٩ .

(٨٤) ص٤٤٤ .

(٨٥) ص ٤٦٤ .

(٨٦) ص ٤٤٦ .

(٨٧) ص ٤٥٠ .

(٨٨) الديوان ص ٤٥٠ .

(٨٩) الديوان ص ٥١٠ .

(٩٠) الديوان ص ٢٧ .

(٩١) الديوان ص ١١١ .

(٩٢) الديوان ص ١٥٥ .

(٩٣) ص ٣١٠ .

(٩٤) ابن الأثير ٦ : ١٩٤ حوادث سنة ٣١٦ .

(٩٥) ففى حوادث سنة ٢٩٠ تحدث عن مطاردة الحسين بن حمدان (عم سيف الدولة) للقرمطي صاحب الشامة في بادية الشام وأسره وقتله (٦ : ١٠٨) . وفي حوادث سنة ٢٩٣ تحدث عن مطاردة الحسين بن حمدان للقرامطة في بادية السماوة وهزيمتهم (٦ : ١١٣ ــ ١١٤) . وفى حوادث سنة ٢٩٤ تحدث عن ايقاعه بأصحاب ذكرويه بن مهرويه في الشام (٦ : ١١٧ــ١١٨) . وفي سنة ٣١٢هـ تحدث عن حراسة أبى الهيجاء بن حمدان (والد سيف الدولة) طريق الكوفة للحج وأسر أبى طاهر القرمطي له (٦ : ١٧٧) . وفي حوادث سنة ٣١٥هـ تحدث عن استيلاء أبى طاهر القرمطي على الأنبار وتهديده بغداد ، واشارة أبى الهيجاء بن حمدان على مؤنس المظفر أن يقطع القنطرة الموصلة الى بغداد . وبذلك نجت العاصمة من القرامطة .

(٩٦) الديوان ص ٢٥٨ .

(٩٧) ابن الأثير . حوادث سنة ٢٩٠هـ (٦ : ١٠٤) .

(٩٨) والى مثل ذلك أشار أبو فراس في حرب سيف الدولة للقرمطى الذى كان يدعَى بالمبرقع حين أغار على (حمص) وأسر أبا وائل تغلب بن حمدان. فنهض اليه سيف الدولة وأوقع به وقتله . وعاد يحمل رأسه فوق رمحه . وذلك قول أبى فراس الحمداني : (يتيمة الدهر للثعالبي ١ : ٢٤ في أخبار سيف الدولة) .

وانقذَ مِن مَسٍّ الحـديد وثقله أبا وائل والدهرُ أجدعُ صاغرُ
فآب ورأسُ القــــرمطي أمامه له جسد من أكعُبِ الرمح ضامرُ

(٩٩) الديوان ٣١٠ .

(١٠٠) الديوان ص٣١٨ . وقد تسلط البويهيون على الخلافة منذ سنة٣٣٤هـ ، وضُربت ألقابهم على النقود . وقد كان البويهيون من غلاة الشيعة . وكانوا متعصبين لمذهبهم الشيعي . وقد حملوا الناس على الاحتفال باعياد الشيعة ، مثل الغدير وعاشر المحـرم . وكان العـداء مستحكمـاً بين البويهيـون وبين الحمدانيين . وكان هذا العداء راجعاً الى تنافسهم من ناحيـة ، والى ما بينهم من خلاف مذهبي من ناحيـة أخرى . وقد همّ معز الدولة بن بويه بتحـويل الخلافة من العباسيين الى العلويين . ثم رجع عن ذلك لاعتبارات سياسية نبهه اليها بعض خواصه ـ تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) للخضري . الطبعة الرابعة ص ٣٧٨ ، ٣٨٢ .

(١٠١) ص ٣٥٨ .

(١٠٢) الديوان ص ٤١٧ .

(١٠٣) الديوان ص ٤٢٧ .

(١٠٤) الديوان ص ٥٤٧ .

(١٠٥) كتب أول هذه المحاضر في عهد الخليفة العباسى القادر بالله سـنة ٤٠٢هـ ـ وهو معاصر للحـاكم بامر الله الفاطمي . وقـد وقع المحضر كبـار الفقهـاء والقضـاة وبعض زعماء الشيعة . ويتضمن المحضر الطعن في نسب الفاطميين ، وأنهم ديصانية وينتسبون الى ميمون بن ديصان القداح ، وأنهم كفـار زنادقة وفسـاق ملاحـدة ، أباحوا الفـروج وأحلوا الخمور وسَبُّوا الأنبياء وادعوا الربوبية . ثم صدر ببغداد محضر آخـر سنة ٤٤٤هـ يتضمن المطاعن نفسـها ، ويزيد عليها أن الفـاطميين يرجعـون الى أصل يهودي أو مجوسي ، ثم صدر محضر ثالث يؤكد المحضرين السابقين سنة ٤٤٨هـ ـ تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ـ٤١١ ، الحاكم بامر الله ص ٥٥ـ٥٦ .

(١٠٦) راجع تفصيل ذلك في (الصبح المنبى عن حيثيـة المتنبى) للبديعي ص٤٨ الى ٤٩ ، ٥٠ ، ٢٣ الى ٢٨ ، ٣٢ الى ٣٣ ، ٨١ .

(١٠٧) الصبي المنبى ص ٧٣ـ٨٠ وراجع مثل ذلك أيضاً في قصته مع أبى فراس ص ٨٢ـ٨٣ .

(١٠٨) راجع أسماء الكتب في (الصبح المنبى) ص ٨٢ ، ١٦١ .

(١٠٩) ابن الأثير ٦ : ١٢٥ حوادث سنة ٢٩٤هـ .

(١١٠) الديوان ص ٨ .

(١١١) ذكرى أبى الطيب ص ٣٨ .

(١١٢) وبنى طه حسين على ذلك أن المتنبى قد اضطر للجلاء عن الكوفة بعد جلاء القرامطة ، فذهب الى بغداد داعية للمذهب القرمطي . وقد بنى الباحث ذلك على أنه مدح محمد بن عبد الله العلوى بقصيدته (أهلا بدار سباك أغيدها) ووصف فيها فراره من الكوفة سيراً على الأقدام . والواقع أن الممدوح بهذه القصيدة لم يكن في بغداد ، ولكنه كان في ظاهر الكوفة ، كما حققه عبد الوهاب عزام (ذكرى أبى الطيب ص٤٦) . وربما كان ما ذكره في القصيدة من وصف رحلته سيراً على الأقدام وصفاً لعودته من البادية الى الكوفة .

(١١٣) ذكرى أبى الطيب ص ٣٥ .

(١١٤) تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٨٦ .

(١١٥) ابن الأثير ٦ : ١٠٥ حوادث سنة ٢٩٠هـ ، الطبري ٨ : ٢١٩ .

(١١٦) ذكرى أبى الطيب ص٣٨ .

(١١٧) ديوان أبى الطيب المتنبى ص٤٦ . وقد أثبتها الشاعر من بعد اجابة لرغبة بعض أهل الأدب .

(١١٨) الديوان ص ٣٨٦ .

(١١٩) الديوان ص ١٥٩ .

(١٢٠) الديوان ص ٢١٨ ، ٥١٤ .

(١٢١) الديوان : حاشية ص ٥١٩ .

(١٢٢) الديوان ص ٥٨٧ .

(١٢٣) تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٢ ـ يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٣٣٦ ، ٣٤٩ الى ٣٥٥ .

المراجع التى ورد ذكرها فى الحواشى

١ - تاريخ الأمم والملوك (ج٨) للطبري - مطبعة الاستقامة بمصر ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

٢ - تاريخ الدولة الفاطمية - لحسن ابراهيم - الطبعة الثانية ١٩٥٨م .

٣ - التبصير في الدين - للأسفراييني - مطبعة الأنوار بمصر ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م .

٤ - الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية - لمحمد عبد الله عنان . الطبعة الثانية ، لجنة التاليف ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩ م .

٥ - الخطط للمقريزي : راجع (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) .

٦ - ديوان أبى الطيب المتنبى - تحقيق عبد الوهاب عزام - مطبعة لجنة التاليف ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م .

٧ - ديوان المؤيد في الدين داعى الدعاة تقديم وتحقيق محمد كامل حسين - مطبعة الكاتب المصري عام ١٩٤٩م .

٨ - ذكرى أبى الطيب - لعبد الوهاب عزام - الطبعة الثالثة - المعارف بمصر ١٩٦٨م .

٩ - الصبح المنبي عن حيثية المتنبى - للبديعي - مكتبة عرفة بدمشق ١٣٥٠هـ .

١٠ - طائفة الاسماعيلية - لمحمد كامل حسين - مطبعة لجنة التاليف - ١٩٥٩م .

١١ - فرق الشيعة - للنوبختى - المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦م .

١٢ - الكامل في التاريخ (ج٦) لابن الأثير - المطبعة المنيرية بمصر ١٣٥٣هـ.

١٣ – كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة – لمحمد بن مالك الحمادي اليماني – مطبعة الأنوار بمصر ١٣٥٧هـ – ١٩٣٩ م .

١٤ – المتنبي لمحمود شاكر – مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٩٧هـ–١٩٧٧م .

١٥ – محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) للخضري – الطبعة الرابعة ١٣٥٣هـ – ١٩٣٤م .

١٦ – مختصر الفرق بين الفرق للبغدادي (اختصار الرسعني) – مطبعة الهلال بمصر ١٩٢٤م .

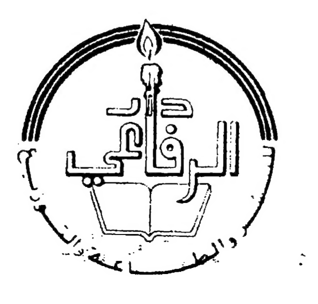
١٧ – مع المتنبي – لطه حسين – المعارف بمصر – الطبعة العاشرة .

١٨ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ج ٢) للمقريزي – مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤هـ .

١٩ – يتيمة الدهر – للثعالبي – مطبعة حجازى بمصر ١٣٦٦هـ – ١٩٤٧م .



فهـرس مفصـل



المقر الرياض ـ الملز ـ تفرع شارع جرير ص.ب (١٥٩٠)

تلفون ٤٧٧٧٢٦٩ ـ برقية : دار الرفاعى

المملكة العربية السعودية


مطابع الروضة
جدة: عمارة باخشب أمام الهاتف الآلي ت: ٢٧٩٢١

الكاتب بقلمه

بسم الله الرحمن الرحيم



ولدت في سوهاج، من مدن الصعيد في مصر سنة ١٩١٢م. وتلقيت تعليمي الابتدائي والثانوي فيها، باستثناء السنة الأولى الثانوية، التي التحقت فيها بمدرسة أسيوط الثانوية، لأنها كانت المدرسة الثانوية الوحيدة في صعيد مصر وقتذاك. وحصلت على الليسانس سنة ١٩٣٧م من قسم اللغة العربية في الجامعة المصرية – وكذلك كان اسمها، لأنها كانت الجامعة الوحيدة في مصر وفي البلاد العربية وقتذاك. وعينت معيداً في الكلية في السنة نفسها، وكلفت بتدريس اثنى عشر درساً أسبوعياً في السنة الأولى، وكانت هذه هي السابقة الأولى التي يعين فيها معيد في سنة تخرجه ويكلف بالتدريس. ثم حصلت على الماجستير والدكتوراه، وانتدبت للتدريس في كلية الآداب بالإسكندرية سنة ١٩٤٠م وكانت وقتذاك فرعاً من الجامعة المصرية في القاهرة، ثم نقلت إليها بعد استقلالها سنة ١٩٤٢م وتدرجت في وظائف التدريس بها إلى أن شغلت كرسي الأستاذية سنة ١٩٥٤م وأعرت أستاذاً للعمل في الجامعة الليبية وجامعة بيروت العربية. ثم تعاقدت مع جامعة بيروت العربية بعد بلوغي سن التقاعد سنة ١٩٧٢م، وظللت بها إلى أن تعاقدت مع جامعة محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٩٧٦م حيث أعمل الآن.

٢ رجب ١٤٠١

(٦/٥/١٩٨١م)

مطابع الروضة – جدة